محمود تيمور

النبي الإنسان

ومقالات أخر

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة الآداب ومطبعتها بالجماميز ت ٩١٩٣٧٧
المطبعة النموذجية
٦ حارة الشابوري بالحلمية الجديدة

محمود تيمور

النبي الإنسان

ومقالات أخر

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة الآداب ومطبعتها بالجماميز ت ٩١٩٣٧٧

المطبعة النموذجية
٦ سكة الشابوري بالحلمية الجديدة

قل يارب !...

ابتهال

يارب !...

كلمة واحدة ... اذكرها ، ولا تزد عليها ، فأنت بها فى غنية من مزيد !...

رطب لسانك بهذه الكلمة القصيرة ، ودع ما عداها من كلمات طوال !...

انس كل شىء حولك ، بل انس وجودك ، وانس علمك وخبرتك ، وصح قائلا : يارب !...

قلها فى صيحة صامتة ... فليس الله بحاجة إلى من يعلى الصوت ، ويرفع النداء ...

قلها لنفسك ، ولا تُسمعها أحدا غيرك ، فما انتفاعك بأن يسمعها الناس منك ، إنما انتفاعك بأن تسمعها أنت نفسك ، مناجاة تتجاوب أصداؤها فى حنايا قلبك ! ...

قلها كلمة واحدة ، وحسبك بها ، فالله هو الكلمة الواحدة لهذا الكون الحافل العظيم ...

قلها مرات ومرات ، لا تسأم التكرار والترديد !...

قلها فى أى وقت شئت ، وفى أى مكان حللت ، سواء أكنت فى خلوتك ، ظافرا بوحدتك ، أم كنت فى معترك العيش تخوض الزحام .

قلها فى إصرار ، فى عمق ، فى نشوة !...

قلها وأنت فى غفوة النوم ، أو فى صحوة اليقظة !...

قلها فى ضراعة المستغيث من كربته ، وفى قوة المطالب بحقه .

قلها وأودعها كل ماتهفو إليه من مطامح ورغاب ، فإنها لا تضيق بشيء مما تنفسح له خلجات النفوس وأهواء القلوب .

قلها وأنت ظالم جشع ، أو مظلوم موتور !...

قلها وأنت منتصر جبار ، أو مستضعف مهزوم !...

قلها وأنت مسرور يهز أعطافك المرح ، أو محزون ينوء كاهلك بالأثقال والخطوب !...

قلها أبدا ، مهما يكن من أمرك ، وعلى أى حال تكون ، فإنك بعد أن يلهج بها لسانك ، لا تلبث أن تحس بأنك ذلك المخلوق الذى عرف الخالق ، عرف الله ، فانكشفت له الحقيقة الأزلية من وجوده ، وزالت الغشاوة عن عينيه ، غشاوة

الاختلاف بين إنسان وإنسان ، وإن تباينت الألوان !...

* * *

يارب !...

نداء يا له من نداء !...

فيه يتركز كل ما يهتف به الدعاة من صلوات وابتهالات ، منذ ارتفع على ظهر الأرض دعاء ، إلى أن يطوى الله الأرض والسماء !...

فيه تندمج الأديان ؛ فإذا هى دين الله ، وتأتلف الأوطان ؛ فإذا هى وطن الإنسان .

فيه ينبض قلب الكون كله نبضة واحـــدة ملؤها طهر وصفاء .

نداء ينتظم الناس أجمعين فى سمط واحد ، هو سمط الإنسانية الخـــالد .

نداء يسمو بك على كل ما يخدعك فى هذه الحياة ، من جاه زائف ، ومال زائل ، وسلطان يبيد .

نداء يصلك بتلك الروحانية السرمدية ، روحانية الله فى ملكوته الأعلى !...

* * *

يارب !...

كلمة ينبعث بها صوتك ، فإذا هو صدى لصوت البشرية فى كل جيل وقبيل ، البشرية المبتهلة دائماً إلى الله ، لأنها أبداً فى حاجة إليه يؤنسها فى الوحشة ، ويهديها من الحيرة ، ويعينها على الطريق !...

متى قلتها فى إيمان ويقين ، عرفت كيف يستجيب الله للدعاء ، ويلبى النداء .

متى قلتها فى حرارة تذيب نفسك ، وتصهر سريرتك ، شعرت بأنك قد اغتسلت وتطهرت ، فتألق نور عينيك ، وشاع الصفاء بين جنبيك ، وكأنك قد نبت لك جناحان يرفان ، فأنت بهما فى خفة الطير تحلق فى الفضاء الفسيح .

* * *

يارب !...

ما هتفت بك مرة إلا أحسست النورانية تشرق على قلبى !...

ما هتفت بك مرة إلا استشعرت الطمأنينة الساجية تشيع فى نفسى !...

ما هتفت بك مرة إلا آنست فورة الأمل وانبعاث الحيوية ، لاحيوية الفتك والتدمير ، بل حيوية الحب الشامل العطوف !...

يارب !...

لا أرهب شيئاً فى الوجود ، ما دام ندائى لك ملء سمعى !...

حتى أنت لا أرهبك ، لأن حبى إياك يعمر قلبى ، والمحب الصادق لا يتطرق إلى قلبه الخوف ممن يحب !...

ما أخافك إلا إن أحسست البعد عنك . وكيف أبعد عنك وأنا بندائى لك قريب منك ؟...

ربما كنت أنا خاطئاً فيما كتب على من شر ، ولكنى أحب فيك الخير ياصانع كل خير ، أحب فيك الطمأنينة والسلام يا منبع كل طمأنينة وسلام !...

* * *

يارب !...

ما أسعدنى بحبى إياك ...

أنا لا أخشى أعاصير الحياة ؛ لأنى فى عصمة منها بالطلاسم . وليست هذه الطلاسم إلا ما أجد لك فى قلبى من حب دائم موصول .

أنا لا أضيق بالآلام ذرعا ، لأنى أجد فى نسمة رضاك ما يمحو الآلام ويأسو الجراح .

يارب !...

لم أعد أعرف إلا وجودك معى .

حتى الموت لا أرهبه ، ولا أتهيبه ، فهو يدنيني منك ، ويجلو لى وجهك الوضاح .

أنام — إذا نمت — مطمئنا رخىّ البال ، فاسمك آخر ما تلفظ شفتاى .

وأصحو — إذا صحوت — متفائلا طلق الأسارير ، فندائى لك أول ما يلهج به لسانى .

* * *

يارب ! ...

ما أحوجنا إلى أن نراك رأى البصيرة ، فالبصائر أقوى على الاتصال بكل ما هو مكنون ، بكل ما هو حق ، بكل ما هو خير .

نريد أن نستجلى ببصيرتنا ضوءك ، لكى نغترف من حنانك وشفقتك ، لكى نروى قلوبنا بمحبتك .

إننا نتشوف إلى رؤيتك ، فلا تحجب عنا قبساً من نورانيتك ...

إننا نحس الوحشة فى عالمنا على ضجته ، فهى ضجة الطبل الأجوف ، تثير فينا فزعاً ورهبة ! ...

إذا لم نستشعر وجودك ، يفيض علينا أنساً ودعة ، فنحن فى وحدة وانفراد ، وإن كنا فى جمع حاشد ، وشمل جميع .

فلا تكلنا إلى هذه الوحدة الموحشة ، وحدة النفس المشردة ، لا سكينة ولا سلوى .

* * *

يا رب !...

نحن فى اضطراب يتلوه اضطراب ، تُسْلمنا ألغاز الحياة إلى ألغاز !...

نحن فى ظلمة حالكة ، حيارى لا ندرى أين المساق ؟...

فاكشف عنا الحجب ، واهتك أستار الظلام ، وأشرق علينا بنورك ، نور الحق والخير والحب والسلام !...

* * *

يا رب ! ...

إنك لتسمع دعائى ، وإنك لتجيب ندائى ...

كلماتك تتأدى إلىّ ، بلا واسطة من أصوات ، فإن الأصوات تطرق الآذان ، ولكن كلماتك تنفذ توا إلى القلوب .

أسمعنى صوتك يا رب ! ...

أنر بصيرتى لرؤيتك يا رب !...

اسقنى من فيض رحمتك يا أرحم الراحمين ! ...

النّبىّ الإنسان

نشأت فألفيت نفسى مسلما فى بيئة مسلمة ، أتلقى مراسم الدين تلقينا ودراسة ، وأمارس شعائره تقليدا ومحاكاة ... وعلى تعاقب الملابسات تفقهت فى كثير من الأصول الدينية ماوسعنى أن أتفقه ، وأصبحت بهذا أخا فى الإسلام لأهل الإسلام !...

والدين كالوطنية كلاهما يوسم به الطفل يوم يولد ، ويفرض عليه فيما يستقبل من أيامه ، لا خيرة له فى ذلك ولا طوع ، فأكثر الناس ينقادون لدين البيئة أو يهتفون بحق الوطن ، مسايرة للركب العام ، وانطلاقا مع التيار الدافق ... وربما أبى بعض الناس إلا أن يعملوا عقولهم ويقلبوا أبصارهم، سبرا للأغوار، واستكناها للحقائق ، وموازنة بين الدلائل ، حتى يخرجوا بإيمان صادق تستمد حيويته من درس وتبصر ، ومن تيقن واقتناع .

لقد مر بى حين من الدهر . قضيته فى محنة واختبار ، أسائل النفس فى شأن هـــذا الدين الذى تلقانى فتلقيته يوم ولدت ، إذ

فرضته على البيئة فيما فرضت من أحكام العيش ... وكنت فيما أسائل به نفسى ، أطلق لعقلى حرية المحاورة والنقاش ، يتعلق بما شاء أن يتعلق به من آراء وأفكار ، ويتصفح من وجوه النظر ما يتاح له أن يتصفح ، لعله ينأى بى عن موقف الشك والحيرة والتردد ! ...

ولم أترك العقل وحده يقضى قضاءه ، وإنما استكملت وسائل الهداية من طريق التأمل ، واستجلاء البصيرة والوجدان . وما هذا التأمل والاستبصار إلا أن تدع روحك محلقة فى غير المنظور ، محاولة أن تستشف سرائر الوجود ... وإن فى ذلك كله لتهذيباً للعقل ، وصقلا للمعرفة ، ووقوفا بالعلم عند حد ، لا بغى فيه ولا طغيان .

ونفضت يدى من تلك الفترة القاسية ، فترة الصراع والاختبار والتمحيص ، وكأنى محموم ، أو كأنى قريب عهد بالخروج من مغتسل يفور بالماء السخين ، أحس بأن روحى قد ذابت أدرانها فى حميم الماء ، وأنى قد أصبت الطهر العميم ...

هنا تلمست عقيدتى : أتعرف كيف صارت ؟... فإذا أنا — كما أنا — مسلم « أشهد أن لا إله إلا الله » ! ...

ولكن إيمانى ساعتئذ بالإسلام . ويقينى به ، كان قد اتخذ فى قرارة قلبى صورة جديدة لم تكن على هذا الوضوح من قبل . . .
فقد تمثل لى الدين جوهراً وروحا أكثر منه رسوما وقواعد ،

ومعنى جليلا أكثر منه لفظا محدوداً ... لقد أصبح عندى فكرة عميقة ، تسرى فى شرايين الحياة مسرى الدم فى شرايين الإنسان ، حتى لقد استبان لى هذا الدين فوق الأوامر والنواهى ، وفوق الرسوم والتعاليم ...

كان مفتاح فهمى لرسالة الإسلام أنى تصفحت حياة الرسول جانباً بعد جانب ، فتجلت لى شخصية عامرة بالعظائم فى بناء كيان الأمة ، وفى تقويم خلق الفرد ، وفى نهج الحياة لسالكيها من سائر الناس !...

أخذت بيدى هذه الشخصية الفذة ، تهدينى طريق الحق والدين ، فوجدتنى أحب هذا الدين ، وأحب فيه رسالته التى جاء بها رحمة وهدى .

سبحانك اللهم وتعاليت ، فيما قدرت وفيما اخترت ...

اصطفيت رسولك «محمداً» لأداء رسالتك ، فما كان اصطفاؤك إياه لهذا الأمر العظيم إلا لأنه كفء له عظيم !...

لعمر الحق إن « محمداً » كان بشخصيته وبخصائصه قوة للدين ، ومداداً للإيمان ، ومناراً يرفع الغشاوات ويكشف الحجب !...

أينبعث النور وضاحا من مصباح أقتم أغبر ؟...

لقد حمل « محمد » شعلة الإسلام ، فأضاءت فى يده ، وازدادت

من توهج ، وأشاعت من حوله الدفء والضياء !...

كانت حياة الرسول قبل مبعثه حياة تكمن فيها خصائص النبوة ، وتتمثل أخلاق الرسالة،فلم يكن ـ بعد أن بُعث رسولا إلى الناس ـ شخصا جديدا على الناس فى الأخلاق والسلوك والأهداف ! ...

ولو جاز لنا أن نستشف معالم الإسلام قبل الدعوة المحمدية إليه لتراءت لنا هذه المعالم من خلال حياة «محمد» قبل الإسلام !...

إن الله إذا أراد أمرا هيأ له أسبابه . سنة الله فى خلقه ، ولن تجد لسنة الله تحويلا ... فلا غرو أن يكون « محمد » هو الأفق الرفيع الذى صاغته يد العناية الإلهية لكى يشرق من جانبه كوكب الدين باهر اللألاء ! ...

شخصية « محمد » ترجمة حية لكتاب الله ، إذا قرأت قرآنه طالعتك الصحائف الغر من حياة رسوله ومن ميزاته ، وكأنما شاء الله أن يسوق لنا منهج الدين فى كتابه ، وأن يتبعه تطبيقا عمليا ونموذجا بشرياً فى حياة « محمد » ، وفيما أُثِرَ عنه من ألوان التصرفات فى شتى شئون الحياة !...

كان « محمد » رجل دنيا ودين ! ...

أحبّ الطيبات من متاع العيش ، وسعى إليها سعى الأخيار بوسائل الأخيار ، لأنه كان يرى الله فى كل ما يعمل ، مقيما ضميره

مقام الرقيب الساهر ، وذلك هو جوهر الدين الخالص ... ذلك هو الإسلام ! ...

يهيب بك الإسلام أن تستمتع بدنياك طولا وعرضا ماطاب لك ، ويدفع بك إلى الضرب فى مناكب الأرض استخلاصا لما على ظهرها ، وما فى باطنها ، من كل شيء ... فلتفعل ما تهفو إليه نفسك من مأكل ومشرب وملبس ، ولتلتمس كل ملذة من وجهها المشروع ، لا حرج عليك ولا تثريب ، ما دام ذلك منك فى غير عدوان ولا سَرَف .

كان «محمد» إنسانيا قبل أن يكون نبيا ، فلما أظلته نبوته لم تبرحه إنسانيته ، بل لقد زكت وتوهجت ، وبقى إنسانا فى جوانب حياته ، تتصل أرومته بأرض البشر ، وتسمو روحه إلى الملإ الأعلى ! ...

خالط « محمد » عشيرته ، ودامج بيئته ، فكان منها كما كان لها ، لم تنكر منه نفرة ، ولم تأخذ عليه جفوة ، وإن كانت قد عرفت فيه زعيم انقلاب يكافح الغنى ، ويعلى كلمة الحق ! ...

أحب « محمد » وأبغض ، وأثاب وعاقب ، وعامل الناس كما يحب أن يعاملوا ، لا رحمة فى غير مَرْحم ، ولا قسوة إلا حين تقتضيها حكمة ! ... وهكذا عاش « محمد » فى دنياه فردا منها ، لا شذوذ ولا انفصام ! ...

كذلك كان دين «محمد» إنسانياً مثله ، من فهم أسراره من الناس لم يَرِبْه منه شيء ، فإنه واجد فيه وشائج النفس البشرية فى أطوارها ومنازعها ، وواجد فيه مع ذلك سموا بهذه النفس البشرية إلى الأوج الرفيع !...

لكل فرد من الناس على تفاوت درجاتهم من الغريزة والعقل والمعرفة مكان فى ذلك الدين القيم يسعه ، ويوفر له فيه طمأنينة العيش ، وراحة النفس ، وسكينة الضمير ... وكيف لا يكون الأمر كذلك ، وهذا دين الله الشامل لعباد الله ، ومن أعرف بالناس واختلافهم فى الغرائز والعقول والمعارف من رب الناس ؟ . . . ومن أخبر بالطبائع والنفوس من رب القلوب ؟...

ليصدق كل امرىء نفسه ، وليقف موقف الاختبار والتمحيص فى صراحة وإخلاص ، وليضع نصب عينيه التوفيق بين ما للإنسان من طبع بشرى متأصل ، وماله فوق ذلك من طموح روحى إلى المثل العليا من فضيلة وعدالة وخير ...

إنه لو فعل ذلك ، لأيقن — مهما تكن عقيدته فى نشأته وبيئته — بأن هناك وشائج موصولة بينه وبين نفسية « محمد » ، النبى الإنسان ، وبينه وبين إسلام « محمد » دين الله !...

القرآن ملحمة الفن الرفيع.

كان « عمر بن الخطاب » من ألد الناس عداوة « لمحمد » ، ومن أكبرهم مناهضة لدين الله ، ومن أشدهم حربا على من أسلموا ، فما هُدى إلى الإسلام حتى صارت عداوته حباً ، ومناهضته نصرة وحربه تأييداً وتعزيزا . وحتى شهد له الرسول بأنه : « أشد المسلمين فى الله ! » .

ألم يكنْ عجبا أن إسلام « عمر » كان عفو الساعة ، على حين بغتة ، لم تسبقه محاولة ومزاولة ، فما هى إلا لحظات حتى انقلب ذلك الخصم الجاهلى الجبار الغنيد ، فإذا هو نصير من المؤمنين جبار عنيد ؟...

كيف أسلم « عمر » ولم يكن بينه وبين الكيد لنبى الإسلام إلا بعض ساعة ؟...

يقول فى ذلك « عمر » :

« ... كنت للإسلام مباعداً ، وكنت صاحب خمر ، وكان لنا مجلس يجتمع فيه رجال من قريش ، فخرجت أريد جاسائى أولئك ، فلم أجد منهم أحدا ، فقلت : لو أنى جئت فلانا الخمار ،

وخرجت لجئته فلم أجده، لجئت المسجد أريد أن أطوف بالكعبة فإذا رسول الله قائم يصلي ، فقلت : والله لو أني استمعت « لمحمد » الليلة ، حتى أسمع ما يقول ، فلما سمعت القرآن رق له قلبي ، فبكيت ودخلني الإسلام ... »

على هذا النحو كان « عمر » جاهليا ينطوى على عنجهية وصلف ، فما إن استمع لآيات من القرآن ، حتى نفض عنه جاهليته فى خفقة البرق ولمحة البصر ! ...

ترسل على سمعه ذلك النغم العذب الصافى ، فاضطرب كيانه ، وانتظمته رعشة ليس له بمثلها عهد ! ...

أحس شيئاً ينفجر فى قلبه ، لم يعرف له كنها .

أنبع هو قد انبثق بغتة ، فأفاض ماءه السلسال على حنايا نفسه ! ... أكوكب هو قد توهج دفعة ، فأشع ضوءه الباهر فى جنبات روحه ؟...

لقد كان انقلابا عظيما ... ولكنه تم على أيسر سبيل ، فما هو إلا سماعه آيات ترتل من كتاب الله ، كانت عنده أقوى من برهان عقلى يجابه به ، ودليل منطقى يساق إليه .

لقد سُحِر « عمر » بما فى « القرآن » من نغمة حلوة تسربت فى مشاعره ، فهزتها وبعثت فيها يقظة الحياة ، نغمة تحوى حكمة

الأزل ، تلقتها روحه كما يتلقى الصديان رشفة ماء ، فسرعان ما امتزجت بها الروح .

« القرآن » حقاً أكبر معجزة ...

إنه ذروة الفن الرفيع ، صاغه الله من نور ، وأرسله شعاعا نفاذاً ، لا يمتنع عليه شغاف القلوب ! ...

إنه ترنيم سماوى حنون ، تطرب به النفس وتجد منه نشوة صوفية تتفتح بها مغاليق المجهول من سر الحياة ، ويتجلى بها جوهر الحق والخير والجمال ! ...

« القرآن » معجزة الفن فى أوسع معانيه ، فهو نغمة تترسل فى أشعة متألقة ، أو نور يتألق فى نغمة مترسلة ! ...

إنه أروع لحن أنشده الزمن ، فأصغى له الوجود ، وهو به نشوان طروب .

أنت تصغى إلى «القرآن» فتطرب وتحسب أنك لست ببالغ منه شيئاً وراء هذا الطرب ، ولكنك فى نشوتك به تشعر بأن نفسك قد تدسست إلى طوايا الوجود وكشفت عنه الحجب واستشفت أسراره لا تمويه فيها ولا تشويه .

« القرآن » يلمس وجدانك ، ويثير عاطفتك ، ويوقظ بصيرتك فيريك ما انطوت عليه إنسانيتك من حقائق خالدة .

إنك لتفهم « القرآن » كائنا ما كنت ، لأن حقائقه ليست غريبة عنك ، فهى كامنة فى كيانك ، سارية فى إنسانك ! ...

لا غرابة فيما يبسط لك « القرآن » من شرعة وحكمة ، فما هى إلا شرعة البشرية الأصيلة ما بقيت البشرية ، وما هى إلا حكمة الأزل إلى آخر الأبد ! ...

لم يكن دين « محمد » صبغة مستعارة لهذا الكون ، ولم يكن إهاباً مفروضا على أولئك البشر ، وإنما هو صفوة مستخلصة من جوهر الكون الأصيل ، وفطرة الإنسان السوية ؛ فهو بحق : « دين الفطرة » ! ...

قصارى ما جاء به الدين الإسلامى أنه هداك إلى ما انطوت عليه النفس الآدمية من مثل رفيعة فى الحق والخير والجمال ، فمبلغ رسالة « القرآن » أنه يثير بنغمته الحلوة أشواق نفسك إلى كل ما هو حق وخير وجمال !

صدق ذلك العربى الذى شهد « للقرآن » بأن له حلاوة ، وأن عليه طلاوة ، وأقسم : ما هذا بقول بشر ! ...

أجل ... فليس « القرآن » إلا نغمة علوية من السماء .

إنه أبدع ملحمة غنائية عرفها الإنسان ، صيغت فى بلاغة مشرقة ، وأوحى بها إلى النبى ليسترعى إليها سمع الإنسانية الحيرى ،

حتى تجد فيها سكينة النفس وطمأنينة الوجدان .

مبدع « القرآن » هو الفنان الأكبر : مبدع الكون وبارئ الإنسان !...

من فيض الفن الإلهي الزاخر يستلهم المثال والمصور والموسيقي والشاعر والكاتب ، وبنوره القدسي يستضيئون أجمعين ...

وما « القرآن » إلا قبسة الشاعرية الإلهية ، أوحى بها قصيداً عربياً فريداً ، يروع القلوب ، ويهز المشاعر !...

« القرآن » شعر ، وإن أعجز الشعر ، ولم يكتنه ...

من ابتغى أن يتذوق حلاوة « القرآن » ، ويستشعر معانيه العذاب ، ويستجيب لصوفيته السمحة ، فليسمعه كما أنزل ؛ « فالقرآن » عربي ، ومعجزته في بيانه العربي ، في تلك البلاغة الساحرة ، في تلك الصياغة الفنية الأخاذة ، في ذلك الإيقاع المطرب المعجب ، في ذلك التناسق والتوافق والانسجام !...

« القرآن » لا يترجم ، ولا يلخص ، ولا يقدم إلا كما هو في ثوبه الأصيل !...

هل استطاع مترجم أن ينقل الشعر من لغة إلى لغة ، محتفظاً له بما انطوى عليه من روح وجوهر ؟ ...

روعة الشعر في تعبيره وتصويره ، وبلاغته في جرسه

وإيقاعه ، فألفاظه تؤدى معانيه فى ألفة من النغم ، فإذا أنت أفقدته عنصراً من عناصره بطل السحر وغاض البهاء ! ...

مثل من يحاول استشفاف بلاغة « القرآن » فى لغة غير لغته ، كمثل من يطلب النور فى غير مصباحه ، أو من يوقع « سيمفونية » متجاوبة الأنغام على أوتار « ربابه » فى يد منشد جوّال ! ...

إنى لأجهر بأن ترجمة « القرآن » وإن أحيطت بأسباب التمكن والقدرة ، وابتُغيَت لها أسباب الدقة والإتقان ، لا تكون إلا تشويها لأكبر أثر فنى فى هذا الوجود ... إنها اجتراء على عمل الله ! ...

فلنستبق « القرآن » فى عروبته التى صبغه الله بها ، ومَن أحسن من الله صبغة ؟...

على أنى أتساءل :

هل عرفنا « للقرآن » حقه ، ونهضنا بالواجب إزاءه ؟...

هل استحدثنا ما نستطيع من وسائل لتقريب مناله من جمهرة الناس ، وتيسير سبيلهم إليه ؟...

هل اتخذنا الأسباب التى تجعل سلطان « القرآن » على الأذهان أعمق ، وأثره فى النفوس أجدى ؟ ...

لا يذهبن بك الوهم إلى أن طبع الألوف من نسخه كل عام ،

وإذاعة ترتيله بالتطريب المتعارف بين القـــراء ، فهما كفاية وغنـــاء !...

لا تظنن أن ذلك هو قصارى ما يمكن أن يبذل للجمهور ، لكي ينتفع بالقرآن على وجهه الصحيح في عصرنا الحديث .

ما قصر أسلافنا في تيسير « القرآن » لطلابه ومريديه ، فقد جهدوا ماجهدوا ، وجددوا ماجددوا ، فماذا فعلنا نحن المستخلفين على هذا التراث العظيم ؟...

لقد أخلدنا إلى التزمت والتحفظ والجمود ، فلم نكن على سنن أسلافنا في الاجتهـاد والتجديد ، وقفنا حيث انتهوا ، وظللنا قاعدين والدنيا تسير بل تطير ، وأهل الأرض يتطورون عقلا وفهما وذوقا ، ونحن نتابع الركب السائر بل الطائر بعيون يرنق فيها نعاس الخمول ، وشفاهنا تهمهم : « ليس في الإمكان أبدع ممـا كان » !...

كانت الآيات تترسل من فم النبي صلوات الله عليه ، فيتلقاها الصحابة ليودعوها صدورهم حافظين ، ثم أثبتوها في مختلف الألواح والصحف من سعف ونخار وجلود ، ولم تكن الكتابة العربية قد عرفت بعد نقط الحروف وضبط الحركات ، فتوازدت عهود من التنظيم والتدبير تبدع الإعجام والشكل ، وعلامات

الوقف والوصل ، ومواقع القطع والمد ، وما إلى ذلك من الرقوم التى تيسر كتاب الله للأفهام . ثم تواصل التجديد والتجويد لتلاوة « القرآن » فى تنغيم محبب ، وتطريب شائق ، حتى يبلغ من النفوس المبلغ المنشود !...

فكيف لا نتابع الخطو ، ونصطنع من الوسائل ما يلائم روح العصر ؟...

إن هذا « القرآن » وديعة فى أيدينا ، وهو قبسة نور وهدى ، فما بالنا نستبقيه اليوم كما هو فى قنديله القديم ، ونحن فى زمن يحفل بلوامع الحضارة ألاقة الأضواء تبهر الأنظار ؟..

وما لنا لا نتخذ من الوسائل الفنية ما تتجلى به روعة ذلك الفن الإلهى الذى يتمثل فى « القرآن » ؟...

لماذا لا نزف « القرآن » فى مظهرين من التصوير والموسيقى ؟...

أقول هذا ، وكأنى أرى هامات تتطاول ، وأعناقا تشرئب ، وعيونا تحملق ، وشفاها تنبس بألفاظ الدهشة والعجب ... ولكنى أمضى فى تبيان قولى ، جاهراً به ، يحدونى عليه إعلاء كلمة الله فى إيمان ويقين !...

علينا أن نصطنع من التصوير والموسيقى ما يكفل لهذا الأثر الفنى تعمقا فى النفوس ، وتغلغلا فى مكامن الشعور !...

لقد زخرت مدنيتنا الراهنة بأحداث وشواغل ومزاحمات أورثت الناس مزيداً من الإجهاد والإرهاق ، وبذلك ضعفت الحواس فى طبيعتها المرهفة . ووهنت المشاعر فى فطرتها السليمة ، وصار الناس أقل تمثلا لما فى الكون من مخايل الجمال الروحى ، وأحوج إلى دواعى اليقظة والتوجيه والإغراء . فلكى تستعيد الحواس رهافتها وتسترجع المشاعر صفاءها ، يجب أن نستعين بوسائل جديدة توفى بنا على الغاية المرجوة .

لا شىء أبلغ فى النفوس من الموسيقى والتصوير ، بهما ننبه ما خمل من الحواس ، ونشحذ ما تسلم من المشاعر ، ونثير ماترسب فى قرارات النفوس من تذوق للفن الرفيع !...

الخير كل الخير فى أن نجند طائفة من عباقرة التصوير ، ليجلوا لنا مشاهد من « القرآن » ، فإذا هى ألواح فنية رائعة تعين على التفهم ، وتبعث على التأثر ، لا يلبث الناظر إليها أن يستبين الحقائق ، ويستجيب لما تهدف إليه من حكمة وتبصرة .

ما أحب إلى المؤمن المقبل على التزود من دينه أن يستمتع بهذه المشاهد القرآنية فى صور أخاذة ساحرة ، وما أعظم الأثر الذى تتركه هذه الصور فى نفوس الناس جميعاً ، ولاسيما النشء . فستكون لهم تلك المشاهد قرة أعين ، تبعثهم على التعرف والاستطلاع ،

ولا يذهب من نفوسهم وقعها فى شتى مراحل العمر .

لست أعنى أن يقتصر الأمر على أن تكون هذه الصور فى ثنايا كتاب الله ، ولكنى أنشد أن تكون من الصور ألواح كبيرة تعلق فى المساجد ، وأماكن التعبد بخاصة ، وتزدان بها المعاهد والمؤسسات والدور على وجه عام .

وما إخالنا اليوم نثير فى وجه التصوير ما كان يثار فى الماضى من اعتراض ونكير ، فقد انطوى عهد الوثنية إلى غير مردّ ، ولم نعد نخشى على المؤمنين اليوم ما كان الأقدمون يخشونه عليهم من فتنة ، وهم قريبو عهد بالجاهلية وعبادة الأوثان !...

ولربما كانت الموسيقى أعمق من التصوير أثراً فى هذا الشأن ، فالنغمة العذبة الصادقة فى تعبيرها تتسلل إلى سويداء القلب ، فتبعث فيه بواطن العواطف ، وتهز منه دقائق الخلجات !...

أرأيت كيف تتلقى الأسماع آيات « القرآن » حين يرتلها صوت حلو النبرة جميل النغم ؟... فماذا يحجم بنا عن السمو بهذا التطريب البدائى إلى لحن من الفن الرفيع على أوضاع موسيقية أصيلة ، حتى نجلو ما فى « القرآن » من إبداع وروعة إيقاع ؟...

فلنجد إذن طائفة من عباقرة الملحنين ليجددوا فن التلاوة والترتيل ، فنستمع إلى « القرآن » على لسان قارىء فنان ، يتخذ

لقراءته لحنا رفيعا يعبر به عن المعانى القرآنية السامية ، ويبرز ما فيها من خصائص الجمال !...

« القرآن » زاخر بألوان من صور ومشاعر ، وإن صياغته لتبلغ فى خلابتها مبلغ السحر ، فهل أقدر من اللحن الموسيقى على أن يمازج هذه الصور ويداخ تلك المشاعر ؟... وهل أطوع منه فى الاستجابة لها وإخراجها موفورة الحظ من نصوع وسطوع ، ميسورة السبيل إلى هدفها المرموق ؟...

لماذا لا نستعين بالآلات الموسيقية المستحدثة ، فى مصاحبة الترتيل القرآنى ، ومراسلته على نحو فنى ؟...

أليس فى ذلك تلطيف وترقيق لما نفهمه ، فى معنى التعبد ، من خشونة ومكابدة ؟...

لم لا تكون العبادة فنا جميلا ، يشغف القلوب حباً ؟...

ولم لا تكون الموسيقى — فى ظلال التعبد — صوفية سامية ، وهى فى حقيقة أمرها رياضة روحية ، تمت إلى خصائص الدين بأوثق الأسباب ؟...

ليس كل التعبد أن يمارس المرء تلك الرسوم المألوفة من ترديد القول ، وتحريك الأعضاء والجوارح ، فجوهر التعبد الحق أن ينسى المرء نفسه فى ملكوت الله الأعظم ، فيسبح فى أفق من

الرحمة والحنان والحب ، ويشعر بأنه قطرة موصولة بذلك الموج الشامل فى سماء الله وأرضه ، لا كيان له إلا به ، ولا انفصام له عنه ، به يحيا ، وفيه يفنى !...

والموسيقى خير معوان على أن يسمو المتعبد بنفسه إلى ذلك الأفق الروحانى الأعلى !...

لقد كانت الموسيقى فى ركب العبادة منذ القرون الأولى ، فهى من دعائم المراسم الدينية على تعاقب العصور واختلاف الأديان . وهل ننسى « مزامير داود » ؟... وهل قامت حلقات الأذكار وحفلات الموالد إلا على الأناشيد !... وهل « الأذان » إلا لحن موسيقى ، يعلو به صوت المؤذن فى أطباق الجو ، فيلبيه المصلون مشغوفين ؟...

أكبر يقينى أننا لو عنينا بأن يكون للقرآن هذا الإطار الموسيقى لكان له فى النفوس ، وقع عظيم ، ولأقبل الناس عليه يتناشدونه فى إقبال وإشراق ، ولألفى الطفل نفسه ينمو ، و «القرآن» فى روحه ينمو ، فيصبح الدين جزءا منه ، يستجيب له ؛ إذ يتلقاه شعوراً ملازما يحيا معه ، فيؤثر فيه أيما تأثير ، وما أسعد امرءاً يشب ونور الإيمان يعمر قلبه ، هادياً إلى الحياة المثلى ، عاصما من الشرور والآثام !...

هذا « القرآن » العظيم ملحمة المسلم الكبرى فى عالم الفن الرفيع ، يضم بين دفتيه حكمة الزمن ، وفلسفة الوجود ، فيظهرنا على سرائر النفوس ، ويرينا نوازع الخير والشر ، ويدعونا للتى هى أحسن وأقوم ، فلزام علينا أن نطبع عليه ناشئتنا فى منهج عصرى ، منهج يوائم ما نعرف اليوم من طرائق التربية والتلقين والإفهام ، حتى ينشأ جيلنا الجديد وقد تذوق ما فى « القرآن » من كرائم المعانى ، واستشعر ما فيه من حكمة وهدى ، فإذا هو « قرآنى » الطبع ، « قرآنى » الروح !...

وما ظنك بامرىء يصاحب « القرآن » منذ نشأته : يسمعه لحنا عذباً يسحر السمع ، وينظره لوحا فنياً يبهر النظر ، ويتذوقه معنى رفيعاً وحكمة بالغة ... ألا يكون خليقاً بأن تطهر روحه وتصفو نفسه ، وتستنير بصيرته ، ويعمق إيمانه ، فيدرك حقائق الحياة على نحو كريم ؟...

« القرآن » كنز المؤمن ... فلنؤد له حقه من التقديس الخالص ، التقديس الحق ، التقديس القائم على دعائم من الفهم والحب والانتفاع !...

العمامة

قضية الرءوس العارية!...

بارحت الدار قبيل الظهيرة ، من يوم اشتد قيظه ، وتلهب هواؤه ، وكنت أتخذ الطربوش غطاء لرأسي ؛ فإني مازلت أحتفظ به أثرا لشعار وطني ، أوشك أن يبيد .

فما كدت أوغل في الطريق ، حتى طفق العرق يتصبب على وجهي ، سابحا على عيني ، يكاد يغشي بصري ، وإذا برأسي أتون يتوهج ، فألفيتني أخلع الطربوش ، وأنحيه عني ، وأناجي نفسي : فلأكن عصريا ، ولأشايع الرأي العام في تخليه عن هذا الغطاء الذي استبان عجزه عن حماية الرءوس !...

وانطلقت وقتا أطوف في المدينة بلا طربوش ، نشيط النفس ، خفيف الحركة ، لا يثقل خطاي من شيء !...

بيد أني بعد أن عدت أدراجي إلى البيت ، وجدتني صريع صداع شديد ، فكأن مطرقة ضخمة قد انبعثت تدق رأسي دقا في غير هوادة ولا رحمة ، وأحسست بوجهي يتضرم ؛ وكأن النار تلتهمه التهاما ! ...

وعلمت بعد لأى أنى قد أصابتنى ضربة شمس ، من جراء نبذى للطربوش ، صديق القديم ، فعدت إليه أمسح عليه ، مترضيا إياه ، طالبا منه الصفح والغفران ! ...

ومرة خرجت فى الصبيحة من يوم عاصف ، تلسع فيه برودة الشتاء ، ولا ينقطع له رذاذ ، وناجيت النفس أقول : فى مثل هذا اليوم يكون الطربوش لى خير معوان يحمينى من عصف الرياح ويردّ عنى وقع الأمطار .

وما كدت أخطو بضع خطوات حتى ألفيت الهواء يقتلعه ويقذف به فى عرض الطريق ، ثم يمرغه فى الأوحال . فعجلت نحوه أمد له يد المساعدة ، وأنتشله من بركة ماء كان فيها على وشك أن يغرق . وجعلت أمسح عنه ما علق به من ماء وطين ، وأعدته إلى مكانه من رأسى ، أتقى به غضب السماء ... بيد أنه ما لبث أن طار عنى ، وحملته الريح إلى بركة يسبح على سطحها يمنة ويسرة ، فبادرت إلى إسعافه وأرجعته إلى قواعده سالما ! ...

ويبدو لى أنه قد طاب له الطيش والنزق ، فسرعان ما عاود السباحة فى برك الطين ، فلم أملك إلا أن أرمقه شزرا ، ثم ما لبثت أن ازوررت عنه ، ومضيت أواصل السير ، وقد بنيت عزمى على أن أنبذه ، وجعلت أناجى النفس : فلأكن عصريا ولأشايع الرأى العام

فى التخلى عن هذا الغطاء الذى استبان عجزه عن حماية الرءوس ...

وتابعت خطاى أستقبل على رأسى رذاذ المطر فى طرب ، وأرحب بالهواء البارد يعابث شعرى ، فيبعث الانتعاش فى أوصالى ،

ولما بلغت الدار ألفيتنى صريع زكام وسعال ، ما أسرع أن أفضى إلى نزلة شعبية ، كادت توردنى موارد التلف ! ...

وفيما أنا راقد فى فراشى ، أعانى وعكتى ، إذ انسرحت أقلب الرأى فى تلك القضية العَصَبِيَّة ، قضية غطاء الرأس ، أو بالحرى « قضية الرءوس العارية » ...

وراعنى أمر لم أفطن إليه إلا فى تلك الساعة ، أمر أذهلنى وحيرنى ، وهو أننا أمة بلا غطاء رأس ! ...

هذه أول مرة فى تاريخ البشرية ، منذ انفصل الإنسان عن حياة الغاب وبدأ يؤسس حضارة ، نجد أمة تبدو بلا غطاء رأس ، هى أمتنا العزيزة ! ...

فى كل عهد من عهود التاريخ ، وفى كل رقعة من رقاع الأرض نرى للناس غطاء رأس ، حتى « الهنود الحمر » لهم عصائبهم المحلاة بريش الطير تزين الجباه . فلمَ نصر هذا الإصرار العجيب على الخروج برءوسنا حاسرة ؟ ... ولم نعرض الضعاف منا ، وغير

الضعاف، لضربات الشمس والنزلات الشعبية ؟... وماذنب هؤلاء الصلع المساكين ، يستقبلون — على رءوسهم اللامعة الملساء — سياط الصقيع فى الشتاء ، وألسنة اللهب فى الصيف ؟...

ألا رحمة بنا ورفقا أيها الشباب المجدد ! ... ألم يكن جديرا بكم ، قبل أن تعلنوا الحرب على الطربوش ، أن تفكروا فى غطاء آخر ، تهدونه إلى الأمة مكانه ؟ ... أما أن تتركونا عراة الرءوس فذلك أمر لا تحتمله عافية الأبدان ، ولا تسيغه سلامة الأذواق .

ورحت أمعن فى التفكير ...

وحملنى الخيال إلى آفاق بعيدة ! ...

وتمثلت نفسى ، أجوس خلال معرض عظيم ، يضم فى جنباته جميع النماذج من أغطية الرءوس ، منذ بدء الخليقة حتى اليوم ، وراعنى ما حفل به المعرض من تنوع وطرافة . وإنى لأذكر فيما أذكر تلك العصائب من أوراق الشجر تكلل الهامات ، وهذه الفلانس الفرعونية الكاسية ، بألوانها المفوفة البهيجة ، وهذا الحشد الزاخر : من طراطير ، وطرابيش ، وقلابق ، وقبعات ، وعمائم ، مختلفة الشكول والأوضاع ، مثلت أمامها ساعات تلو ساعات ، أملأ منها عينى .

ووجدتنى أطيل وقفتى أمام قسم العمائم ، فقد أحسست

شعورا عميقا ، يجتذبني نحوه ، شعور حنين دافق ، قد تفجر من قلبي على حين بغتة .

وما إن ثُبت إلى يقظتي حتى هجس بي هاجس : لم لا أكون في هذا الأمر رائد فكرة ، وصاحب توجيه ؟... لم لا أهدى — إلى مواطني الكرام — حلا لتلك القضية العصية التي طال عليها الأمد ؟ ... لم لا أقول لهم جهير الصوت :

دونكم العمامة ، فلنتخذها دون سواها !...

العمامة ياسادة هي أصلح غطاء للرأس ، لا في مصر وحدها بل في أقطار العروبة كلها ...

علينا أن نوحد غطاء الرءوس ، فنتحد على أثر ذلك الرءوس !...

في كتب الأولين والمحدثين فصول طوال في فلسفة الزى ، ومبلغ أثره في النفوس ؛ فإذا استطعنا أن نجعل للشعوب العربية كلها غطاء موحدا للرأس ، كفلنا لها وحدة في التفكير ، ورأينا كيف تتصاغر المشاحنات ، وكيف تضيق شقة الخلاف ، ومن ثمّ تزول الفوارق ، ويشيع الوئام .

خذوها مني يا شعوب العرب كلمة مخلص يمحضكم النصح :

اتخذوا العمامة غطاء لرءوسكم !...

انبذوا ما عداها .

لا يكون بعد اليوم طرابيش مصرية أو تونسية ، ولا برانس مغربية أو ليبية ، ولا كوفيات حجازية ، ولا فيصليات عراقية ، ولا قلابق هاشمية ، أو قلانس لبنانية ، أو ما إلى ذلك من أغطية للرءوس متباينة الطراز ، تثير الدهشة والعجب ، بل إنها لتثير الحنق والسخط فى شعوب قد توثقت بينها وشائج من دم وعقيدة، وشعور ولسان ! ...

لن يكون لنا إلا عمامة موحدة .

إنها راية العروبة وسفيرها الأوحد أمام قبعة الغرب ! ...

اتخذوا العمامة شعارا لكم وانظروا كيف تسير الأمور ! ...

ولعلكم تسائلوننى :

أية عمامة أنت مختارها لنا ؟... إن دنيا العمائم فسيحة الأرجاء، تزخر بمختلف الأشكال والألوان ! ...

منها العمائم التركية القديمة للسلاطين وغير السلاطين ، تلك التى تماثل القباب الشامخة على ضرائح الأولياء ! ...

ومنها العمائم الأزهرية المجنحة ، فى عهودها السوالف ، تلك التى يتدلى منها « عذبات » على الظهر ؛ كضفائر الصينيين فى مواضى الحقب ! ...

ومنها الغمائم المستطيلة كالطراطير ، تنزع بأطرافها إلى السماء ؛ كأنها ناطحات السحب !...

ومنها الغمائم المنساحة المفرطحة ؛ كأنها رقائق الفطير ينبسط بعضها فوق بعض !...

ومنها العمائم « المقلوظة » ، المتضائلة فى حجمها ، المتصاغرة فى هيئتها ؛ كأنها تحاول الاستخفاء والتستر عن أعين الرقباء !...

ومنها ... ومنها ...

العمائم كثيرة متعددة ، يصوغها كل بلد على نحو خاص ، بل إن كل امرىء يصوغها بحسب ذوقه وهواه ... فأيها تختار ؟ ...

أتراك تريدنا على أن نعود القهقرى ، فنتخذ غطاء رأس قد عفى عليه الزمن ، وانسدل عليه ستر النسيان ؟...

على رسلكم أيها الرفاق ... أحسنوا بى الظن ، واسمعوا منى الجواب :

لست رجعيا وحق السماء . وما عمامتى التى أنشدها إلا عمامة عصرية من طراز مبتكر ، توحى للرأس الذى يلبسها بكل ما هو جديد نافع من الأنظمة والمذاهب والآراء !...

ولعل أول خاطر يلوح لى فى هذا الشأن هو أن نحيل الأمر على جهة الاختصاص ، تدرسه فى روية ، وتصدر قرارها فيه على

بصيرة ، وليست جهة الاختصاص هذه إلا « الجامعة العربية » ! ...

وإنى لأطرق على استحياء باب تلك « الجامعــــة » الموقرة باقتراح متواضع ، هو أن تدعو إلى « مؤتمر للمائدة المستديرة » تسميه « مؤتمر العمامة » . قوامه وفود من أهل الرأى والتجربة والحنكة ، تبعث بهم دولنا العربية ، يصحبهم طائفة من خبراء الزى الفنيين ! ...

على هذا المؤتمر أن يناقش موضوع : « غطاء الرأس » ، وأن يضع لنا نموذجا لعمامة عصرية تصلح أن تكون غطاء رأس المواطن العربى ، فى جميع أرجاء امبراطوريتنا العربية العتيدة ! ...

ولتسمح لى « الجامعة » بوصفى صاحب الاقـــتراح ببعض توصيات أقدمها إلى المؤتمر الموقر ، تتلخص فيما يلى :

لزام أن يتوافر فى عمامتنا الجديدة عناصر أساسية ، هى الجمال ، والوجاهة ، والبساطة ، وخفة الدم ! ...

كذلك أقترح أن تتخذ مادتها من اللدائن (البلاستك) لكى تساير روح التطور العصرى ...

وأن تكون لينة طرية ، فى ذلك تطرية للرءوس الصلبة المنحرفة عن جادة الصواب ، وتليين الآراء الفجة الجامدة ، العسيرة الهضم ! ...

وأن تحتفظ بلونها الناصع البياض ! ...

وأن تحتفظ كذلك بمظهرها العتيد ذى الليات والطيات ...

وإنى كبير الأمل فى ألا ينسى أهل الفن من مبتكرى هذا الغطاء الجديد للرأس أن تتوافر له عناصر « تكييف الهواء » والوقاية من الأمطار ، ليكون صالحا لكل زمان ومكان ، مهما تقلبت الأجواء ... وتلاعبت الأهواء ! ...

هاهو ذا مشروع خطير أعرضه على « جامعة الدول العربية » مشفوعا بنصيحتى التالية :

اتركوا ما بين أيديكم من أعمال ! ...

قفوا ما تتدارسونه من برامج ! ...

تنحوا اليوم عن كل شىء ...

تفرغوا لأمر واحد ، لمشروع واحد ، هو مشروع غطاء الرأس الجديد . فإذا استطعتم أن تتخذوا قرارا فى هذا الشأن وأن تنفذوه فى جميع الدول العربية ، كان ذلك انتصارا ليس بعده انتصار ، انتصاراً يسجله لكم التاريخ فى زهو وفخار .

وإن أول جلسة تعقدونها ، والعمامة الموحدة تتوج رءوسكم ، ستكون جلسة ساحرة بلا مراء ! ...

ستترون كيف يتيسر أمامكم العسير ، ويسهل عليكم الصعب ! ...

ستزون كيف تتلاقى الجهود ، وتتصافى النفوس ، ويتزايل الخلاف !...

ستزون كيف تنجز الأعمال فى طرفة عين ، دون حجاج أو لجاج !...

خذوها منى ، كلمة مخلص أمين يرجو لكم الخير أجمع :

وحدوا من غطاء الرءوس !...

تستقم الرءوس !...

وتتوحد الرءوس !...

من وحى المعركة :

الشهيد المجهول ! ...

بُنَىَّ الصغير ! ...

جئت اليوم أناديك ، أحييك ، أُنَوِّهُ بذكراك ! ...

جئت أرفع الصوت بهذه النجوى ، وقد تقضت شهور منذ أن تجلت بطولتك ، وتحدث الناس باستشهادك فى سبيل وطنك ،

إنى لأخشى فى زحمة الأحداث الجارية ، وما يشغل الناس من إرهاصات وتكهنات ، ومايتلبد فى الآفاق من غيوم ، أن ينصرف القوم عنك ، فيضيع اسمك ، ويشحب رسمك ، وتغدو نسياً منسيا .

جئت اليوم أذكِّر الناس بك ...

أذكرهم باليتيم الصغير ، باليتيم الشهيد الذى لم يترك وراءه أباً يترحم عليه ، ولا أما يضطرب صدرها بنجواه ! ...

جئت أذكرهم بك ! ...

بالشريد الذى لم يعرف له فى حياته مسكنا يأوى إليه ، فلما

فتكت به شظايا القذائف ، لم يعرف له قبرا يضم رفاته ! ...

جئت أقول فى صرخة معولة :

لا تنسوا الشهيد الصغير ، ذلك الذى لم يتجاوز من عمره عامه الثانى عشر ! ...

كل بطل من الشهداء له من يذكره أو يفكر فيه ، سواء أكان من ذويه أم من مواطنيه .

إن اسمه لا يعدم لساناً يلهج به ، أو قلبا يختلج له ...

أما أنت يا صغيرى الحبيب فلم يكن أحد فى حياتك يعرفك ، وأنت اليوم فى مماتك لا يكاد يعنى بأمرك أحد .

ظللت مجهولا فى حاليك على السواء ! ...

لذلك جئت الآن أميط اللثام عنك ، وأرفع إلى العيون طيفك ، لتبدو أمام الناس على حقيقتك ، تتحدث إليهم بقصتك !

لم أرك رأى العين ! ...

لم يقع بصرى على رسمك ! ...

لم يبلغ أذنى صوتك ! ...

لم أسمع باسمك ! ...

لم يصل بينى وبينك سبب ! ...

بيد أننى أعرفك حق المعرفة ! ...

أنت ملء سمعى وبصرى ووجدانى !...

إنى أحس وجودك كاملا !...

إنى لأتصورك تتواثب فى الطرقات ، طليقاً فى خفة الطير ، منتشياً ببهجة الحياة !...

وإذا بأذنك تلتقط أصوات المذيعين وهى تعلن هجوما على بلدك ! . . .

إنك لتتريث فى السير ، وترهف السمع هنا وهنالك !...

ثم تعود إلى التواثب !...

ولكن أصوات المذياع تلاحقك ، فتجتذبك لتعود إلى التقاط الأنباء !...

إنها تتحدث عن شر يكاد يحل بالبلد الذى تحيا فيه .

إنك لترى الناس تتجمع !...

وتحس اللغط يتعالى ، والأحاديث تتردد عن هجوم وشيك .

وتصغى إلى القوم يتواصفون طائرات تقذف بمظلات ، مظلات تهبط إلى الأرض تحمل معها الهلاك والدمار ، مظلات لها ملمس الحرير ، يتعلق بها أشخاص من حديد ونار !...

فيستهويك الوصف على الرغم من هوله . وتنصت له كما تنصت إلى قصص الخرافات والأعاجيب ، يرويها لك عجائز الحى !...

وأراك تمثَّلُ بعض الوقت ، وقد سرى فيك الخوف ، ثم لاتلبث أن تعجل ساقاك بالفرار ! ...

ولكن صوت المذياع يلاحقك ، ولغط الناس يتحول إلى هتافات تثير فى قرارة نفسك مشاعر فوارة ، فيها حمية وجرأة واقتحام ! ...

وغدت أمامك تلك الأفواج الصغيرة كتلا من صفوف متراصة ! ...

إن القوم ليحدقون بأبصارهم فى أرجاء السماء ، ويصيخون بآذانهم فى جوانب الأفق ، يترقبون متحفزين ، وإذا أنت بين الصفوف مزاحم بمنكبيك ، تعلو ببصرك كسائر الناس إلى أجواز الفضاء ، وترهف سمعك لكل طارئة من الأصوات .

وجعلت تغدو وتروح وبين جنبيك وقدة من حماسة ونشاط ! ...

لقد استمددت ممن حولك القوة والبأس ، فلم يعد للخوف عليك سلطان ! ...

وحلت الساعة الفاصلة ! ...

أصوات القنابل تدوى مثل قواصف الرعود ، وضوءها يلتمع كخواطف البروق ! ...

أسراب الطائرات تسبح فى الجو كأنها قطع السحاب ، لها أزيز كأنه فحيح الثعابين ! ...

المظلات تنتثر هاوية، كأنها أفراخ النسور فى دنيا الأساطير!...

كنت تشهد ذلك أيها الصغير، مأخوذ النفس، مشدوه البال!...

دوىّ شديد، وأنوار سواطع، وأجسام تتدلى من قباب واسعة تزدحم بها السماء! ...

ذلك يوم الهلاك الأكبر، اليوم الذى تحدث به الناس! ...

إنه ليبـــدو فى نظرك مهرجانا من نار ونور وضوضاء ... مهرجانا طريفاً قد أخذ بمجامع قلبك، وأنساك كل خطر! ...

إن هيجة عارمة قد عصفت بين جوانحك. فما هى إلا أن انطلقت تتواثب وتتصايح واندفعتَ حيث اندفع القوم، لاتلوى على شىء.

بيد أنك فى اندفاعك لم تكن تعلم ما الذى تنتوى أن تعمل.

أمر واحد قد استحوذ على شعورك كله.

هو أنك ذاهب لتقاتل! ...

هو أنك تقصد ميدان معركة دامية.

غير أنك لم تدرك ما القتال على حقيقته، ولا كيف تقاتل بالمعنى الذى يعرفه المحاربون.

لقد حملتَ من قبل السيوف والبنادق، وخضتَ المعارك الحامية.

ولكن ما حملته لم يكن إلا سيوفا من صفيح ، وبنادق من خشب .

ومواقعك التى خضتها لم تكن إلا لونا من عبث الطفولة ولهو الصبا .

أما اليوم فإن الأمر جد .

ثمة قتال حق ينشب عن كثب منك ، وإنك لتلفى نفسك مقبلا عليه .

أساءلت نفسك :

لم تقذف بنفسك فى الأتون ؟...

لم تقاتل ؟...

أنت تقول مع القائلين :

سندفع عن أرض الوطن غاصبها المستلب ! ...

أوعيت معنى هذه الكلمات ؟... أم كان لسانك يلهج بها وحسب ؟...

أتفهم ما الوطن الذى تدفع عنه ؟...

ومن الغاصب المستلب الذى يريد أن يستعبد بلدك ؟...

لو سئلت عن ذلك لما استطعت أن تجيب ! ...

أليس هذا عيًّا منك فى قول ، أو تقصيراً منك فى معرفة ! ...

تلك أمور لم يدركها عقلك تمام الإدراك بعد !...

إنما تدركها بصيرتك ، تفهمها غريزتك !...

أنت لم تنل حظاً من ثقافة ، ولم تتزود بزاد من علم !...

أنت لا تستطيع أن تشرح بكلمات مبينة فصيحة ما الوطن ، ولا من الغاصب المستعبد .

لم تتلق الوطنية درساً في معهد ، ولم تتلقها جملا من أستاذ ، ولكنك تفهمها مع ذلك حق الفهم .

وفهمك لها يفوق علم المتعلمين ، وتثقيف المثقفين .

إن الوطنية يا صغيرى الحبيب كامنة راسخة في واعيتك الخفية ، ورثتها عن آبائك ، خلفاً عن سلف .

أنت تحس بفطرتك البسيطة الساذجة بمصريتك ، تحس من تلقاء نفسك بأن هذه الأرض التي تسير عليها هي أرضك ، لا أرض غيرك . إنها لك أنت ، وليس لواغل دخيل أن ينازعك في شيء منها صَغُر أو كبر !...

تلك هي الحقيقة التي لا يبلغ إليها تشكك أو ريب ، الحقيقة التي استلهمتها بوجدانك ؛ كأنها وحى هبط من السماء عليك ، واستقر في وليجة نفسك ، وسرى في دمك ، وامتزج بأنفاسك !...

أنت يا صغيرى تفهم معنى الوطنية ، كما تفهم معنى « الله » واجب الوجود .

إنك تدركها بحسك ، كما تدرك « ألوهية » ربك بوجدانك ، دون أن تعلم من كنه أمره شيئاً وإن قل .

الوطنية عندك أيها الصبي الأمى — دين مستقر فى أعماق شعورك ، أما عند غيرك فهى كلمات وجمل سامية المعنى ، جليلة الخطر ، نفهم معناها بالعقل والفطنة ، ونبلغ أهدافها بالوعى والإدراك .

إذا سألك سائل :

لم تحب بلدك ؟...

تجلت الابتسامة على فمك ، ثم ألفيت نفسك على الفور تنشد نشيد الوطن ، متعاليا بصوتك ، وانطلقت تقفز وتتواثب فى نشوة ومراح .

نعم !... إنك لتحب بلدك !...

لأنه ليس لك من سبيل إلا أن تحبه أعمق الحب وأصدقه .

أما لماذا كان منك هذا الحب ، وما الذى دفعك إليه ، وما الذى يفيدك منه ، فتلك دقائق لا يعنيك من أمرها شيء .

لقد تخلق هذا الحب يوم أن تخلقت ، وولد يوم أن ولدت .

إنك تحمل بذرته وأنت مازلت فى طوايا الأحشاء جنينا يتطور .

كنت يومئذ تستمد غذاءك ونماءك من تربة مصر الطيبة، وماءها العذب، ينعشك نسيمها الرخى، ويحميك دفئها الحنون.

* * *

لقد خرجت مع القوم لتقاتل.

فماذا حملت من سلاح ؟...

إن القوم خرجوا يلقون الغزاة بما معهم من عدة القتال.

ومنهم من خرجوا يقاتلون بالهراوات والأحجار !...

أما أنت فلم تحمل معك شيئاً من سلاح أو شبه سلاح !...

كنت كلك سلاحا ماضيا !...

إن لك قدماً تركل، ويداً تضرب، ورأساً يصدم، وأظافر تمـــزق !...

لم تحمل معك طبلا ولا مزماراً يثير الحماس.

صيحاتك أقوى وأحدّ من الطبل والمزمار.

وإنك لتتقدم إلى المعركة.

وسرعان ما يبتلعك معمعان القتال.

ثم إذا بك تختنق فجأة، كأنك قبضة من مسحوق ذرتها الرياح...

لقد انتهت حياتك القصيرة على الأرض !...

ولك أن تستقبل حياة جديدة أعز وأحفل فى رحاب السماء .
لقد مت فى لمحة البصر ، وأنت لا تعلم ما الموت ، ولا كيف يموت الحى .
وقد بحث الناس عن موتاهم ليواروهم التراب .
أما أنت فلم يسأل عنك أحد .
لا أب لك ولا أم ولا أهل !...
أنت اليتيم الشريد الذى عاش حياته القصيرة غريباً فى بلده ثم مات دفاعا عنها !...

* * *

اليوم وقد جلا المعتدى عن أرض الوطن ، وعاد « الأبناء » إلى أحضان الأم الرءوم !...
اليوم نحتفل بالنصر .
الأضواء تعود إلى المدن .
المهاجرون يرجعون إلى مواطنهم الحبيبة .
الناس فى فرحة يتبادلون التهانى !...
وأنت ؟...
أين مكانك فى هذا الحفل العريض ؟...
أين مكانك أيها الشهيد الصغير ؟...

أين مكانك أيها الشريد المنسى ؟...

إنى لأرى صدرك العارى تمزقه القذائف الغاشمة !... .

تعال إلى ذراعى يا بنى الحبيب !...

تعال لأحتضنك ، وأمزج دمعى بدمك !...

تعال أقبل جبينك الجريح الملوث بالطين والأوحال !...

تعال لأريح جسمك على صدرى ، وأستمع إلى خفق قلبك ، وهو يودع الحياة .

تعال لأرى فى عينيك صورة مصر الخالدة . صورة مصر الحقة صورة مصر الحية ، صورتها فى عينين يتزايل منهما نور الإبصـــار !...

تعال إلىّ ياحبيبى الصغير لأضمد جراحك !...

ولكن أثمة من جراح تضمد ؟...

هناك جرح واحد كبير ...

هـــو أنت !...

إنى أحسه ، ولكنى لا أراه !...

لقد تناثرْتَ هباء فى الفضاء ، وتطايرت طليقاً مع الهواء ...

إنك أيها الصغير الحبيب لأكبر من أن يضمك قبر ضيق !...

إنك لأعظم من أن تحتويك حفرة مظلمة !...

ستظل فى الفضاء الفسيح تمرح دائماً مع النور والهواء .

لقد بسطت ذراعى إليك ، لألتقى جثمانك ، وهأنذا أردهما إلى صدرى فارغتين ! ...

بيد أنى ما زلتُ أمد بصرى فى الفضاء الذى احتواك ، لعلى أتبين فيه بعض طيفك ...

* * *

الأصوات تعـــود ! ...

والحركة تعـــود ! ...

كل شىء إلى سابق عهده يعود ! ...

ولكنك أنت يا بُنىَّ الحبيب لا تعود ! ...

فلنرجع الأعلام فى يوم النصر ، نحيى مصر ، ونحيى أبطال مصر ! ...

ولنذكر دائماً ، أبداً ، بطل النصر الصغير ! ...

اليتيم الشريد ! ...

الشهيد المجهول ! ...

دستور المؤمن «المواطن الصالح...»

فى ثلاث مواد

أنا وأنت من أهل هذا البلد ننشىء فى عهدنا العتيد أسرة جديدة على أساس جديد ! ...

إنها أسرة وطنية شعبية تتصل بينها اليوم أسباب التعارف ، وتتوشج علائق القربى ...

أو قل إنها تربية سياسية أخذت الأمة بأسبابها ، واجتمع عليها شملها ، وهى توشك أن تنتهى بها إلى تقارب فى الرأى ، وتشابه فى الروح ، وتوحيد للأهداف ، على أساس من المساواة فى أداء الواجبات ، واقتضاء الحقوق ! ...

والأمة فى هذه الفترة التى يتوطد فيها كيانها ، ويقوم بنيانها ، أحوج ما تكون إلى التواصى بما يكفل النضج الوطنى ، وينمى الوعى القومى ، ويخلق المواطن الصالح .

لا تظنن يا صاحبى أنى واقف منك فى حديثى هذا موقف الفيلسوف المتنصح ، يصطنع لك وقار الحكماء ، ويلقى عليك دروس الوعظ والإرشاد ! ...

لست إلا أخالك ، يتحدث إليك حديث تجربة فى هـذه الحياة ، عسى أن يكون فيها وميض لمن يتلمس الطريق !...

وإنى اسائق إليك هـذه التجربة ، لا أروعك فيها بغريب عنك ، أو جديد عليك ، ولربما كنت أنت بما أسوقه أبصر ، وعلى بيانه أقدر ، ولـكنى أريد ببسطه لك أن تزداد به من إيمان ، وأن يكون لك منه تذكرة وانبعاث .

دونك دستور هذه التجربة ، وإنه لحقيق بأن يكون شريعة المواطن الصالح ، وبرنامج الوصول إلى تربية قومية راشدة .

وأنت ألفت أن تجد الدساتير موفورة المواد ، ولـكن هذا الدستور لا يزيد على مواد ثلاث ، واضحة الغرض ، مسلمة من التعقيد ، لا تحتمل التأويل والمجادلة ... فيها غَناء ووفاء !...

على أن ذلك الدستور يقتضيك بادىء بدء أن توطن له نفسك ، وأن تستقبله بتهيئة وإعداد !...

وأول ما تفتتح به فى هذا الصدد ، أن تؤمن بالحكمة القائلة :

« البركة فى البكور »

فعليك إذن أن تهب من رقادك مع يقظة الكون ، وألا تظل فى مراح أحلامك ، وقد متع النهار ...

لكى تدرك روعة البكور ومبلغ أثره فى تنشيطك ، وهدى

بفضله عليك طول يومك ، لزام أن تجرب ذلك بنفسك ، فتجتلى بواكير الضوء ، وقد تسللت فى حواشى الأفق ، وتستنشى نسيم السَّحَر صافيا يترقرق ، فلا تلبث أن تستشعر المرح والانتعاش ، وإذا أنت صدرك منشرح ، وذهنك خالص ، وبالك ناعم رخى ...

بادر يومك مع الفجر ، فإنك إن فعلت أهديت إلى روحك طمأنينة وثقة ، وأسبغت عليها تفاؤلا ورضا ...

أرهف سمعك لأذان الفجر ...

ارتقبه بحيث يبلغك دعاؤه ...

ما أجمل أن تستهل نهارك بذلك الهتاف الخالد :

الله أكبر ! ...

فى هذا الهتاف يكمن سر الحياة ...

حقاً ، الله أكبر من كل كبير ، فإنه ليبسط سلطانه على الكون من حولك ، بيده الحركة وبيده السكون . فاسأله عونا على أن تكون فى يومك موفقاً ، تعمل الخير ، وتجزَى جزاء الخير .

حقاً ، الله على عرشه فى السماء أكبر من كل كبير ، وأنت على هذه الأرض بعونه كبير ! ... أودعك من قوته ، ونفخ فيك من روحه ، وحملك رسالة الحياة : رسالة الحق ، والخير ، والعمران ! ...

إليك النور يولد فى عرض الأفق ، قبسة لماحة بهيجة ،

لا تلبث أن تنمو وتستطير !...

فقل لنفسك :

إنه ميلاد يوم جديد !...

بل قل لنفسك .

إنه ميلاد شخص جديد ... ميلادك أنت فى هذا اليوم ، بعزم صادق ، وأمل وطيد !...

ابدأ يومك ناشطاً بهيجاً كهذه القبسة الناشطة البهيجة من ضوء الصبح ، وكلما ازدادت القبسة من نماء وبسطة زادت روحك معها من بسطة ونماء !...

رتل فى مطلع يومك هذا الدعاء :

أحمدك يارب على أن وهبتنى الحياة ، فما الحياة إلا نعمة تهبها عبادك ، سبيلا إلى عمل صالح ، ووسيلة لبلوغ هدف رفيع .

ليكن هذا الدعاء أول ماتحرك به لسانك فى نهارك ، مستمداً من روحانيته السامية ثقة بالنفس ، وعزما على الكفاح .

إن الدنيا كلها من حولك تعلن لك أن هذا يوم جديد ، وأن الجدة فيه تتغلغل فى كل شىء ، ولست أنت إلا بعض هذه الدنيا ، فلا يفوتك أن تأخذ حظك من هذا التجديد بأوسع معانيه !...

تلك هى السماء من فوقك تبعث قطر الندى فى مبرق الصبح ،

مترسلا على هام الكون ، ليهبه الطهر والنقاء والصفاء ... وإن الأنداء لتهبط على الأزهار والرياحين تنفى عن صفحتها الغبرة والكدر ، فلا تنس نصيبك من ذلك الندى الصافى ، تلتمس لنفسك منه تطهيراً وتنقية .

سنة الله فى خلقه أن يكون التحول من حسن إلى أحسن ، وأن يجرى التطور من درجة إلى درجة هى من الأولى أفضل ، فلتؤمن بسنّة الله ، ولتعلم أنك فى يومك خير منك فى أمسك ، ولتكن كفئا لهذه السنّة التى هى عمود الحياة . فتعمل على أن تكتب فى هذا اليوم لنفسك خطوة إلى الأمام ، وتسجل لها نقلة فى سبيل الكمال !...

إياك أن تحسب ماضيك خيراً من حاضرك ، وحذار أن تعد حاضرك خيراً من مستقبلك ، فإنك إن فعلت كنت المارق الجاحد لسنة الله ، تخرج على طبائع الأشياء ، وتكفر بحقيقة الوجود ، وتنكر تاريخ الحياة البشرية على ظهر هذه الأرض ، ذلك التاريخ الزاخر باطوار رائعة فى مضمار الحضارة والعمران !...

لقد واتتك الحياة بفسحة يومك هذا ، لكى تعمره بعمل ، وتمده بجهد ، فابذل فيه مالم تستطع أن تبذل أمس ، واستكمل فيه ما بدأته من قبل ، واجعل منه فى سعيك وجهادك مجال تثمير لما كسبت من خبرة ومرانة واقتدار !...

الطبيعة فى تجدد ، والكون فى تطور ، والدنيا تتسامى من قمة إلى قمة ، فإن أنت ركنت إلى تقاليد الماضى ، واستكنت لذكريات الأمس ، نسجت حولك من هذه التلافيف أكفاناً تفصل بينك وبين موكب الحياة ! ...

إذن أنت للحياة عدو ، وإن الحياة لأقوى منك ، فلن يقف ركبها طوعا لك ، ولن تستطيع أنت لتيارها تعويقـاً ، ولسنتها تحويلا ، فهى ماضية لاتلوى عليك ، وهى قاسية لاترثى لك . بين يديها خطة ، ونصب عينيها هدف ، فإما كنت على تأييد خطتها عاملا ، وفى سبيل هدفها ماضيا ؛ — فأنت معها تسعى لخير الإنسانية ، وتبنى صرح التحضر .

ما وقوفك على أطلال الماضى تبكيه وترثيه ؟...

هذا حاضرك ماثلا ، يقتضيك أن تفرغ له بجهدك ونشاطك ورجائك ، إنه لك مطواع ، فى مكنتك أن تقومه وتسويه ، وأن تجعل منه لبنة يتوطد بها كيانك ، ويرتفع بنيانك !...

لا يكن مثلك كمثل الذين تجمد أذهانهم ، وتخمد هممهم ، فتستهلكهم الآفات الثلاث : الحسرة على ما فات ، والنقمة عما هو حاضر ، والخشية من الغد المحجوب ! ...

أولئك فلول هزمتهم معركة العيش ، فتركتهم صرعى عجز ، وفرائس إخفاق ...

أولئك ليسوا من زمرة الناس ، فما هم إلا مزق إنسانية لفظتها الحياة ، وذلك هو الجزاء المحتوم لمن يطمس اليأس بصره ، فلا يرى شيئاً يمكن أن يكون أفضل مما كان ! ...

تجنب هؤلاء العجزة المهازيل ، وتلافَ أن تسرى إليك عدوى نفوسهم الخوّارة ، وهممهم القاعدة ! ...

واعلم — علمت الحق — أنك سيد نفسك ما أردت ، وليس فى مقدور غيرك أن يتولى قيادك ما شئت . فأنت أنت ربان سفينتك ، فى يدك وحدها دفة السير والتوجيه ! ...

المرء فى الحق صانع حياته ، وكل امرئ وصنعته . ومهما تكن وطأة القيود والعوائق فإن حدة العزيمة ومهارة الحيلة خليقتان أن تذللا للصانع ما يعترضه من عقبات .

المرء فى الحق صاحب إرادته ، من دخيلة نفسه يستمد طاقة هذه الإرادة وحرارتها الدافعــــة ، فإذا ظلت هذه النار واقدة متوهجة تبعث وتدفع ، فالمرء فى طريقه مقتحم غلاب ! ...

لا يبعثنك التخاذل على أن تقول : بهذا حكم القدر . ولعمرك ما القدر ؟ ... وهل القدر إلا أنت ، سره فيك كامن ، وهو بين جنبيك يعتلج ، وعلى يديك آثاره تبدو ... فكما تحب لنفسك تكون : قَدَر سعد ، أو قَدَر نحس ! ...

فيامن أنت سيد نفسك ، ويامن أنت صانع حياتك ، ويامن أنت صاحب إرادتك بل يا من أنت الذى بيدك تكتب قدرك :

اجعل يومك أفضل من أمسك ، واعتزم أن تكون فى غدك أفضل منك فى يومك ...

هبك صريع مرض أو حليف عاهة ، ولتكن فى مدرجة الحياة ما تكون : فقيراً أو غير فقير ، ميسور الأعوان أو غير ميسور ، سابقا فى صفوف الناس أو غير سابق ، فأنت — على الرغم من كل شىء — قادر على أن تبلغ غاية تستشرف لها العيون ، وأن تبنى عظمة تدين لها العقول ! ...

احذر ما وسعك الحذر أن يتملكك ذلك الوهم الذى يتملك سواد الناس ؛ إذ يحسبون أن الفوز والتبريز مقصور على دائرة معينة ، وأن له أسبابا محدودة ، ومسوغات مخصوصة ، فيدعوهم هذا إلى أن يقيسوا أنفسهم بتلك الدائرة ، ويتفقدوا فى أنفسهم تلك الأسباب والمسوغات ، حتى إذا رأوا حظهم منها منقوصاً باءوا بالحسرة ، وأيقنوا بالخيبة ، ورجعوا ينعون على الزمن أنه حرمهم ذلك السلاح ، وأخلاهم من هذه الأدوات ! ...

لتؤمن أصدق الإيمان بأن ضروب النجاح لاحصر لها ، وأن ميادين الكسب تفوت الإحصاء ، وأن نواحى المجد والجاه مترامية

الأطراف ، بها لكل مسعى مجال ، وعندها لكل همة مقام ، وفى أرضها لكل غرسة منبت... فالطامح إلى مأرب لا يعدم سلماً يبلغ به ما يشتهى ، مهما يكتنفه من الأحوال والملابسات ! ...

فلا يمنعنك مانع تنكره من خاصة نفسك ، ولا يحبسنك عائق تضيق به فى مجرى حياتك ، من أن تكون طموحا إلى ما تريده ، طلاعا إلى الذرى ؛ فابتغ السلم الذى يرقى بك ، واعمل فى الدائرة التى وجدت نفسك فيها بحكم طبيعتك وملكاتك وبيئتك ، فإنك مستطيع أن تكون شيئاً مذكوراً مهما يكن من أمر ! ...

وحسبك — إذكاء لطموحك ، وإمداداً لسعيك ، — أن تعتقد بأن يومك خير من أمسك ، وأن قابل أيامك أفضل من حاضرك .

ولتستمسك بهذه العقيدة وإن عدوت طور الكهولة ، وعلت بك السن ... ولشدّ ما تجنى على الحقيقة إن ذهب بك الظن فى شيخوختك إلى أنك قد أبليت ثوبك ، وطويت بساطك ، واستنفدت حظك من زمانك ودنياك ! ...

ألست وأنت شيخ قد نأيت بجنبك عن غمرة الحياة ، وانسللت من زحمة الناس ؟ ... أو ليس مكانك قد أصبح مكان المطل من مرقبة ، يجد الغمرة أمامه تندفع ، ويشهد الزحمة دونه تضطرب ،

وهو فى منآه عنها آمن مطمئن لا يعوزه البصر بحقائقها ودقائقها ، ولا يعييه استيعاب جوانبها ومراميها ؛ — وإذن يتوافر استعداده لاستخلاص ما تتمخض عنه من جوهر ولباب ؟ ...

فأين للشباب مالك فى هذه السن من استقرار واتزان ؟ ... عقلك أنضج ، وذهنك أصفى ، وعاطفتك أبعد عن نزق وتهور ، وحكمك أقرب إلى صواب وعـــدل ، وتجربتك عاصمة لك من الضرب فى متاهات ومزالق ! ...

فليهنك — ياشيخ — ما تستأنف من غد هو أجدى عليك من أمس الداير ، ولتستمرىء مستقبلا أطيب لك من ماضيك الغابر !.

هأنذا قد وقفتك على فحوى المادة الأولى من دستور المواطن الصالح ، وكأنى بك تصوغها معى فى هذه الكلمات :

«ساير الطبيعة فى تطور وتجديد، واجعل من ميلاد يومك ميلادا لنفسك ومشرقا لآمالك . واستيقن أنك فى يومك حتما خير منك فى أمسك ، وأنك فى غدك — لابد — خير منك فى حاضرك ! ...»

والآن وقد طالعت يومك بهذه الروح ، يشرح التفاؤل صدرك ، وتملأ الثقة ما بين جوانحك ، لست إلا واجدا نفسك ناشطاً للعمل ، دائباً فيه .

أعامل أنت أم متعطل ؟ ...

لزام أن تؤمن بأن الحياة عمل ... عمل يضطلع به الحى، ما دام حياً !...

فإن كنت ممن لا يعملون فى هذه الدنيا ، أخرجت نفسك من عداد الأحياء ، وأصبحت ميتا غير مقبور ! ...

ولكن الميت لا يشرك الحى فى النور والهواء ، وأنت فى تعطلك متطفل على الأحياء ، تقاسمهم ما هو حق لهم وحدهم من الهواء والنور ! ...

طبائع الأشياء تقضى بأن العضو إذا لم يعمل كان مصيره الضمور والاضمحلال ، فإن أبيت إلا أن تكون فى جسم الوطن ذلك العضو المتعطل ، فأبشر — يرحمك الله — بعاجل فناء ! ...

نظام الحياة أن يؤدى فيها كل كائن عمله ، وللحياة الغلبة على كل ما يعرقل سيرها ، وهى تلفظ من الوجود كل مايخرج على هذا النظام ، فأنت حين تعاند بتعطلك نظام الحياة ، محكوم عليك — لا محالة — بالإقصاء ! ...

العيش معركة موصولة ، وأبناء الوطن وجنوده فى كسب هذه المعركة ، فالمواطن المتعطل جندى يشق عصا الطاعة ، ويقترف خيانة الوطن .

الخدمة الوطنية لا يقاس شرفها بمظهر العمل وأبهته ... وإنك

أهل أن تتلق راية المجد الحق ، قائداً كنت على رأس الركب ، أو فرداً فى أعقاب الصفوف . فالنصر لا يتم لجيش إلا إن اتسقت له عبقرية القائد الكبير ، ويقظة الديدبان الصغير .

ما أشبه مرافق المجتمع بآلة دوارة معقدة ، فهى متباينة الأجزاء متفاوتة الحركات ، يترتب بعضها على بعض ، وتجرى كلها على نسق ، هادفة إلى غرض ... أرأيت إلى غظمة هذه الآلة كيف تنهار كل الانهيار ، وإلى حركتها كيف تقف كل الوقوف ، إن اختل من نظامها جانب تافه ، أو تعطل من أدواتها مسمار صغير ؟... ذلك شأن المجتمع فى شتى مرافقه ، على تباين الدرجات فهى كلها تتناصر وتتساند ، لا فخر لكبير منها على صغير ، ولا ميزة لكثير منها على قليل ، ما دام كل امرىء يؤدى عمله المنوط به فى تلك الآلة الدوارة ، لكى تضطلع بمهمتها فى تناسق وتوافق ونظام ...

نواة النجاح فى عملك أن تكون له أهلا ، وأن تكون بمواهبك له كفئا ، وأن يلائم ما أنت له مخلوق... فحاول ما استطعت المحاولة أن تتعرف خصائص نفسك ، وأن تتبين كوامن مواهبك ، لكى تتجنب من الأعمال ما يجافى هذه الخصائص ، وما ينافى تلك المواهب ، حتى لا تضرب فى حديد بارد ، وتسلك طريقاً ليس لمثلك فيه مسار ! ...

إذا أخذت فى عمل لا يوائمك ، ولا تتهيأ له كفايتك ، فإنك فيه أحد اثنين : واغل دخيل ، أو راغم الأنف مغلوب على أمره ، وكلاهما لا يظفر منه العمل بتجويد وافتنان !...

إنما أنت فى هذه الأعمال التى تكابدها على غير كفاية ، وتزاولها دون هوى ، كمثل من يسوقه الطمع فى الاغتنام حيث كان ، أو تدفعه يد السُّخرة غير مختار .

فأما إن وصلت نفسك بالعمل الذى خُلقت له ، فإنك ستهب عملك جوهر نشاطك ، وتبثه زبدة فكرك ، غير منهوم بما يكون من كسب ، ولا نادم على ما تبذل من مجهود ، وذلك هو باب التفنن والتسامى ، وتلك هى سبيل الإجادة والإبداع ... ومن هنا يظفر المجتمع بجديد من وحى الفن ورائع من صنعة الفنان .

وإذ عرفت هذا ، فاكتب معى صيغة المادة الوسطى من مواد دستورنا الثلاثى الأطراف :

« اعمل دائماً ، فالعمل ضريبة الحياة على الأحياء ، واختر من الأعمال ما يساير مواهبك ، ويمازج خصائصك ، حتى تكون بينك وبين عملك ألفة واستجابة ، فترقى فيه مراقى الإتقان » ...

أنت إذن مستبشر فى يومك ، متفائل بغدك . وأنت إذن تعمل ناشطاً عملك الذى تهيأت له ، فتجوّده ما طاب لك التجويد

وتتفنن فيه ما وسعك أن تتفنن .

خيراً فعلت ، وعلى بركة الله خطاك ، ولكن بقى شيء عليك أن تدعم به منهاجك فى سعيك أجمع .

لامرية فى أننا جميعاً نعمل واعين أو غير واعين لغاية طبيعية مرسومة ، تلك هى البقاء ... البقاء على أحسن ما يمكن أن يكون بقاء !...

غريزة حفظ النوع هى التى تهيمن على الحى فى كل تصرفاته من سلب وإيجاب ، وهى التى تمده بشتى الخصال والنزعات ، ماساء منها وما حسن ! ...

ولعل فى طليعة ما يدعوك إليه حب البقاء أن تكون موصوفاً بالأثرة والأنانية ! ...

لا تكن أحد أولئك المتزمتين المتحنثين الذين يعافون مثل هذا الوصف للإنسان ، ويرونه عاراً وسبّة ، ويحسبونه شراً كله ! .

جوهر تلك النزعة حق وخير وعدل ، وهى دعامة يقوم عليها صرح النماء والارتقاء .

بيد أن النزعة إذا تعدّت طورها وجاوزت حدها ، فسد أمرها ، وفقدت ميزتها ، وكانت وبالا على صاحبها ونكالا للحياة والأحياء ! ...

إذا أرخيت العنان فى عملك لأثرتك وأنانيتك ، حصرت نفسك حول نفسك ، وقصرت شعورك فى دائرتك ، فلم تبال ما يكون من حولك ، ولم تعبأ بما يصيب سواك . وإذن تنقلب عنصر هدم ، وأداة تدمير توقع الأذى بالناس ، سادرا لا ترثى لأحد ، جموحا لا تلوى على شىء !...

كن فى عملك أثراً ، وكن أنانياً ، ولكن بالقدر الذى تريد غيرك أن يكونه !...

مثل لعينيك أن اشباهك الناس يتخذون لأنفسهم مثلك فى أعمالهم أثرة مطلقة ، وأنانية متغلغلة ، وأن كلا منهم لا يعنيه غيره ، فكيف يكون مصير ذلك الحشد الذى يتهارش ويتطاحن ويتناهب ؟... إنها حرب أهلية ، يثيرها بعض على بعض ، فيأكل بعضهم بعضاً ، وتنتهى بهم جميعاً إلى خسارة وهزيمة وفناء !...

اعتدل فى أنانيتك ، والزم حد الأثرة النافعة ، حتى تصيب من الحياة مأربك فى غير إيذاء لمن حولك ، وإضرار بسواك .

كما يدعوك حب البقاء إلى أن تكون أنانياً ذا أثرة ، يدعوك أيضاً إلى أن تكون تعاونياً بطبعك ... فلتعجب لغريزة حب البقاء كيف تجمع بين النقيضين من نزعة فردية أصيلة ، ونزعة اجتماعية لا تقل عنها أصالة !...

فلتؤمن بضرورة التعاون يا صاح !...

ولتعلم بأن الإنسان ليس وحده الذى يختص بطبعه الاجتماعى ونزعته التعاونية ، فأنت ترى الطير أسراباً فى مسارح الجو ، والحيوان قطعاناً فى أعراض الفلاة ، وترى النحل خلايا متجمعة ، والنمل سرايا متدفعة ، وترى أجناساً وضروباً من خلق الله ، عليها طابع التعاون ، وفيها روح الاجتماع !...

لئن كانت خصلة الأثرة قد أخرجت الإنسان من الطور البدائى إلى طور التحضر ، متقد العزم ، عظيم الهمة ، شديد الأسر ، إن فضيلة التعاون هى التى يسرت لذلك الإنسان معجزات المدنية ، وارتقت به فى سلم الاجتماع إلى مقام كريم .

التعاون سلاح أعدته الطبيعة لحماية الحى ... تحت راية هذا التعاون تخلقت الأسرة فارتفع للبيت جدار ، ومن وحدات الأسر تجمعت القبيلة فكان لها محلة وسوق ، ومن تلك القبائل المترابطة نشأت الأوطان وتميزت الشعوب .

لا تقل : « أنا » فى حياتك أبداً . بل قل : « أنا ومن معى »...

إياك أن يكون مَثَلك كمثل تلك الهناة الدوّارة التى يلعب بها الطفل ، فهى تدور على محورها ولا تفتأ تدور ، حتى تسقط من الإعياء ، فما أشبه حال تلك الهناة بحال الأنانى الذى يحسب نفسه

محور الدنيا . فهو يدور جاهداً حول نفسه ، حتى ينتهى به الدور إلى سقوط ، ويذهب مجهوده أدراج الرياح !...

الأخلاق المتباينة تعمل فى تحقيق السعادة عمل العقاقير المختلفة فى تركيب الدواء الناجع . فخذ من الأثرة ومن الإيثار مزاجا يصلح به أمرك ... لا تكن فى الأثرة صاحب إفراط ، ولا فى الإيثار صاحب تفريط ... لا تسرف فى أنانيتك وطماعيتك ، ولا تشطط فى بذل نفسك ، والتهاون بحقك ، وبين الطرفين منزلة فيها سعادة الفرد وخير المجموع .

ولقد آن لى أن أدعوك إلى صوغ المادة الثالثة الأخرى من ذلك الدستور الذى نحن بصدده ، فاكتبها إذن على هذا النحو :

« امض فى عملك ، ناظراً إلى نفسك ، ولكن لا تغل فى أثرتك وأنانيتك ، فتهدم المجتمع الذى أنت عضو فيه . فاعرف حق مجتمعك عليك ، كما تعرف حق نفسك ، وكن تعاونياً تستوحى خير المجموع » .

ذلك دستور حياتك فى ثلاث مواد ، أسلفته لك واضحا يسيرا لاغرابة فيه عليك ولا استعصاء . حقائقه أنت بها عليم ، وأصوله أنت بها مؤمن ، فلا سبيل بينى وبينك فى شأن هذا الدستور إلى خلاف ونزاع !...

درس لا أنساه !...

لو أن متصفحا يتتبع سيرة « أحمد تيمور » ، فيتعرف كيف كان ورعا شديد الورع ، متحرجا بالغ التحرج ، مطبوع النفس على حفاظ وانقباض ، مؤثرا للعزلة ما وسعه الإيثار ، زاهدا أيما زهد فى حومة الحياة وملتطم الناس ... فأى نهج يتمثله المتصفح لصاحب تلك السيرة ، حين يعامل بنيه ، فى ذلك العهد البعيد ؟ ... وعلى أى نحو تراه يسوس فلذات كبده ، وهو لهم راع ، وعليهم رقيب ؟ ...

ألقيت على نفسى هذا السؤال ، لأجيب عنه بما شهدت ، لا بما يعمد إليه متصفح السيرة من تكهن واستنباط ، فما راء كمن سمع ، ولا من خال كمن تخيل ! ... ولعل الجواب ألزم بى ، أنا الذى كنت أحد أبناء « أحمد تيمور » حوله ، فشهدت كيف كان يقوم على تربيتنا ونحن إخوة ثلاثة ، متلاقون على عاطفة وشعور ، وإن اختلفنا فى الميول والنزعات بعض الاختلاف ! ...

فى تلك الحقبة التى نشأنا فيها ، منذ نصف قرن مضى ، كانت التربية المنزلية تبيح للآباء نحو أبنائهم ضروبا من القيود ، كما تفرض

على الأبناء لآبائهم ألوانا من التقاليد ، فما كان لولد أن يسلك غير المسلك الذى يرضاه أبوه ، وما كان لأب أن يدع لولده فى مراحه ومغداه سبيلا إلى ذلك ... فالإمرة حق الأبوة ، والطاعة واجب البنوة ، ومن شذ من الآباء لا يأمر فهو متهاون موصوف بالتفريط ، ومن تمرد من الأبناء لا يطيع فهو مستخف موصوم بالعقوق ... ولم تكن للأبناء حيلة أو وسيلة إلا الملاءمة بين ما يأخذهم به آباؤهم الحكام المسيطرون ، وما تهفو إليه نفوسهم الغضة التواقة إلى الحرية والانطلاق . وكانت هذه الملاءمة هى المخادعة والاستخفاء ، وهى التفنن فى إبداء الظواهر على الوجه الذى لا يثير غضبا ولا ملامة ، فلكل ولد مهربه إلى مأربه ، فى ستر من الله أو ستر من الشيطان ! ...

وكانت الفنون والحرف فى تلك الحقبة الغابرة تتفاوت درجاتها فى تقدير الناس ، فمنها الرفيع ومنها الخسيس ، وربما كان فن الصحافة وفن التمثيل أو حرفتهما أخس الفنون والحرف نصيبا من حظوة العامة والخاصة على السواء ، ولعل الجمهور يومئذ كان يتخذ من ألقاب السوء والإصغار لقب « الجرنالجى » و « المشخصاتى » ... فإن تَوَلَّعَ بالصحافة أو التمثيل كريم على أهله ، مصمصوا بشفاههم رحمة له ، وأشفاقا عليه ! ...

وحسبي في تجلية ما كان من صنيع أبينا في تربيته لنا ، وإشرافه علينا ، في تلك الحقبة التي أسلفت وصفها ، أن أذكر أننا في منزلنا الذي كنا نأوي إليه ، ونحن من أبينا على مقربة ومرقبة ، أنشأنا لأنفسنا صحيفة خاصة ، نصدرها في المرة بعد المرة ، وأقمنا مسرحاً للتمثيل ، نخرج فيه الروايات واحدة بعد واحدة . كنا نحن ومن أخذ أخذنا من الصحب ، نتولى في الصحيفة مهمة التحرير والطبع والنشر ، كما نضطلع في المسرح بشئون الإخراج والتمثيل والتفرج والانتقاد ! ...

وامتلك قيادنا على مر الأيام هوى الصحافة والتمثيل ، فتعلقنا بهما كل التعلق ، وتعمقنا فيهما كل التعمق ، حتى إن أوسط الإخوة « محمداً » زاول التمثيل في المسارح العامة على أعين الناس ، وحتى إننا معاً أصـــدرنا صحيفة « السفور » خالصة للأدب ، منشورة على الجمهور ، وبذلك أصبحنا نعدّ من محترفي الصحافة أو أشباه المحترفين ! ...

وكنا نرى أبانا يمتعض من ذلك شيئاً ، ولكن في ترفق واتئاد ، وينهانا عن التمـادي والسرف ، ولكن في غير جزم ولا مصادرة ، ويتحيل لتوجيهنا إلى الدرس والاستذكار ، دون أن نحس منـه وطأة التوجيه ومرارة الإلزام . ولم يكن يقف في طريقنا إلى مايعده

الآباء من لهو الصبا وعبث الشباب ، وإنما كان يجنح إلى محاسنة وملاينة ، فيناقشنا مناقشة الأنداد للأنداد ، ويشير علينا بما يحب ويرضى ، تاركا لنا أن نسلك السبيل الذى نختار ! ...

عاش بين التلال من كتبه ، فلم يأخذ أحدنا — نحن أبناءه — بأن يكون معه ، يقرأ له ، أو يملى عليه ، أو يستملى منه ، أو يطالع بجانبه ، بل يدع ذلك لأنفسنا خاصة ، شئناه أو أبيناه ، فلم يفرض على أيّنا أن يحذو حذوه فيما يستن من سنة وما يرتضى من سلوك ! ...

وإنى أجرى اليوم قلمى بهذه الأسطر ، وأنا على مكتبى ، تحيط بى أصونة الكتب ، مما اقتنيت أو ألفت ، وأذكر أنى مازلت أسير مثل هذه الجلسة منذ عشرات الأعوام ، كما كان يصنع أبى فى حياته السالفة ، على مكتبه ، بين كتبه ، وقد غاب عنى محيّاه منذ ربع قرن ... فتنساب بى التأملات ، وأرانى أعمد جبهتى بيدى أقول لنفسى :

ترى لو كان أبى ألزمنى مكتبته ، وقسرنى على أن أختط خطته ، أكنت أحفظ عهده ، وأحمل أمانته ، بعد أن طواه الردى ، ومضى به ركب الأيام ؟...

لقد آثر أبى لأبنائه حرية التصرف وحرية الانطلاق ...

وكان يمنحهم هذه الحرية فى إطار من حنانه وتعهده ورعايته ، فإذا هو من حيث لا يرون يملك عليهم كل سبيل ، ويأخذ دونهم كل منفذ ، وإذا هم من حيث لا يدرون يَقْفُونَ خطاه ، ويتنسمون ذكراه ، وكأن لهم منه نداء يحدوهم من وراء الغيب ، فيستجيبون له فى طواعية واستسلام !...

ذلك درس علمنيه أبى فى صمت . والدرس الصامت لا يتطرق إليه النسيان ... علمنى أبى معنى التربية الحرة الواعية ، تلك التربية التى هى أملك للنفس من قيود الفرض والإرغام !...

هل من مبارز؟ ...

كان فى الزمن القديم « تقليد » يأخذ به أهل الحجى والرأى والمكانة لفض النزاع بين القبائل والقضاء على الخصومات حين تتأزم بين الأقوام وتنذر بحرب مستطيرة . وكان هذا « التقليد » يطفىء جذوة النار قبل أن يتوهج لهيبها ويمتد شررها وتعم ويلاتها الناس أجمعين ، كان هذا التقليد يتميز ببساطة مظهره ويسر إجراءاته مع ما ينطوى عليه من رأى بالغ الحكمة ! ...

ويتلخص هذا « التقليد الحربى » فى أنه إذا صعب التوفيق بين بلدين متخاصمين اجتمع أهل الرأى من البلدين وانتخب كل فريق زعيما من الزعماء المشهود لهم بالكفاية الحربية ، وطلباً من الزعيمين أن يتبارزا . ويُعَد انتصار أحد الزعيمين تصفية للموقف وعقد صلح شريف بين البلدين يقر به السلام ! ...

بهذه الوسيلة استطاع المجتمع القديم أن يتجنب ويلات الحروب ، مكتفياً بدفع زعيمين لا ثالث لهما فى ميدان المعركة ، مضحياً بواحد منهما أو بهما معاً فى سبيل حياة الشعوب ! ...

فلماذا لا نطالب باتخاذ هـــذه الوسيلة البدائية الساذجة التى

تنطوى على حكمة سديدة ، لندرأ بها الحروب فى عصرنا الراهن! .

لماذا لا يخرج مثلا « أيزنهاور » فى الميدان العالمى حاملا سيفه ورمحه ، أو بتعبيرنا العصرى : حاملا « قنبلته الهيدروجينية » ويصيح مردداً فى مكبر الصوت الذرى :

هل من مبارز ؟... فارس لفارس ؟ ...

فيبرز له من الشرق « مالنكوف » الروسى ، متحديا ، يحمل تحت إبطه كرته السحرية الجديدة ! ...

فيجولان ويصولان لحظات معدودة ، ثم يرتفع دوى هائل يبلغ مسارى الأفلاك ، فى دورتها الأبدية .

وينقشع الغبار ، فلا نجد أثراً « لإيزنهاور » ولا « لمالنكوف » وتطل شعوب الأرض من شقوقها تستجلى الأمر ، ثم تخرج متهللة فرحة ، يتعانق أفرادها ، ويهنىء بعضهم بعضاً بإخاء وسلام وصفاء ! ...

إنهم لن يقروا نصراً ولن يعترفوا بهزيمة ، فلن يجدوا الزعيم الذى يباهى بغلبته على خصمه ! ... لقـــد فتكت بالزعيمين أسلحتهما المدمرة ... لقد تطايرا فى الفضاء ذرّات تسابق ذرات قنابلهما الذرية ...

... وكفى الله المؤمنين القتال ! ...

فن الإصغاء

لم يكن لغواً ما أفاض فيه أهل الحنكة والتجربة ، من الإشادة بالصمت ، وتبيان ما له من فضل ! ...

ولم يكن عبثاً إجماع الأولين على جسامة ما يلقاه الإنسان ، من عثرات اللسان ...

وقد أوجزت الإنسانية هذه الحقيقة الكبرى ، فى الحكمة البالغة التى تقول :

« إذا كان الكلام من فضة ، فالسكوت من ذهب ! ... »

وما أصدق من يقول :

إن شئت أن تكسب صداقة محدثك ، فكن على الإصغاء إليه ، أحرص من أن تتكلم ! ...

والحق أن الصمت فضيلة ، لا يدرك مزيتها إلا الراسخون فى فلسفة الحياة !...

ولكن ما الصمت ؟...

يخطىء من يحسبه عملا سلبياً ، أو — بتعبير أدق — : إمساكا عن العمل ! ...

ليس الصمت عزلة بين الصامت وما حوله ، ولا بينه وبين نفسه ! ...

العزلة جمود وتوقف، فأما الصمت فهو حركة وحياة ، أو لعله من خير ألوان الحركة والحياة ! ...

ليس للصمت معنى إلا أنه « إصغاء » ، وإن كان الإصغاء ضروبا وأنانين ! ...

إذا عقل الإنسان لسانه ، وأطبق شفتيه ، فكأنما هو يهيء نفسه لاستقبال أنواع شتى من الأصوات والهواتف والمناجيات .

ولهذا الاستقبال موردان :

أحدهما : خارجى ! ...

والآخر : باطنى ! ...

فالمورد الأول يوافيك بما هو خارج عن نفسك ، والمورد الآخر يصل بينك وبين سريرتك ! ...

ولا ريب أنك غير مستغن عن ذلك المورد الخارجى الأول ، ولكنك إلى المورد الباطنى أشد حاجة ، وهو لك أكبر جدوى ! ...

أفاتك أن كونك الشخصى يكمن فيه مذياع عجيب ، يستطيع أن ينقل إليك أدق خصائصك ، وأصدق أخبارك ، وأن يقف

بك على دنياك الخاصة ، دنياك الزاخرة بالخفايا والأسرار ؟...

لو عرفت كيف تدير مذياعك ، لتفتحت لك المغاليق من طواياك ، ولسمعت أدق الخلجات فى مشاعرك ، مكشوفا عنها الستار ، مجلوة فى صراحة واعتراف ...

ولربما راعك ما تسمع ، واقشعر منه بدنك ، وتزلزل له كيانك ، فبدوت فى خزى وتصاغر ، ولم تعرف كيف توارى نفسك عن نفسك !...

ولكنك على أية حال تحس بأنك قد كسبت غنما بما عرفته من خفية أمرك ، شأن المريض حين ينكشف له من علته ما تعاصى عليه فهمه ، فيعد ذلك غنما ليس بالقليل ...

وما أكثر ما يكشف المذياع فيك من سيئات ومناقص !...

لتعرفن أنك أكذوبة بارعة ، تسترها غلائل أنيقة !...

أكذوبة على القريب منك !...

أكذوبة على البعيد عنك !...

بل إنك لأكذوبة من نفسك على نفسك !...

ولكأنى بك قد ضقت بهذه الحقائق التى جاهرك بها عقلك الباطن ، فرأيت الدنيا صفحة سوداء حيالك ، واستشعرت الازدراء بهذا المجتمع المشوب بالأضاليل ، وتجلى لك زيف الجاه

وما إليه من عروض الحياة ، شائها تافها لا يزن جناح بعوضة ! ...

فلا تملك — وأنت فى غمة من أمرك ، ثائر متمرد — إلا أن تتلمس فى غير هذا المجال فرجا ، وتتنسم فى غير ذلك الأفق متنفساً ، فإذا بك قد ملت على المذياع تدير أزراره ناحية أخرى ، ومن ثم يرقى إلى سمعك أنغام موسيقية فيها رقة ولطف ، لا تفتأ تسرى بين جوانحك ، تشيع فيها الطمأنينة والرضا ، وتبعث فيها الأنس والمراح ! ...

إنك لتصغى وتصغى إلى هذه الأنغام العذاب ، حاملة إليك فى رفيفها معانى كريمة ، ومثلا رفيعة ، تجلو لك الإنسانية فى صورة وضيئة قد برئت من الزيف ، وتطهرت من الإثم ، وشاعت فيها روح « الحب » الخالص ... الحب فى أرفع معانيه ، وأوسع مراميه ... الحب فى مدلوله الشامل ، الذى يؤتى الحق والخير على أجمل ما يكون الحق والخير ! ...

وإذن يستبين لك أن نفسك ليست كلها شراً محضاً ، ففى زواياها تكمن عناصر طيبة كريمة ، فيها للإخاء الإنسانى مغنم عظيم ! ...

ذلك بعض ما يوافيك به مذياعك الباطنى من شتى الإذاعات ، فأحسن الإصغاء إلى كل مايدور فى سريرتك ، ووازن بين ماينتهى إلى سمعك واجتهد أن تستخلص من ذلك أسساً صالحة لحياتك ! ...

أما ذلك المورد الخارجى الذى يمدك بما تزدحم به أسواق الحياة حولك من أصوات ، مما هو خارج عن كيانك الشخصى ، فهو مورد لا ينقطع له ضجيج ، يشغل ساعات صحوك ، بل إنه ليزحم عليك ساعات خلواتك ، وفترات سباتك !...

وأبرز ما فى ذلك المورد الخارجى هو صوت أخيك « الإنسان » ... وإن كان هـذا فى الحق أتفه ما ينتهى إليك من أصوات ! ...

أنت أدرى بما يصك الآذان من شقشقة اللسان ... فلأنح بك ناحية أخرى بمنجاة من ذلك « الآدمى » الثرثار !...

لتختر مجلسك فى حديقة حالية بما أفاءت عليها الطبيعة من طيبات ، ولتجسن هنالك « الإصغاء » ... فإنك تحت الأيك فى مهبط الأغاريد !...

ثمة أنشودة سماوية الوحى يتغنى بها طائر صداح ، فيترسل إليك لحنها صافياً نقياً علوى الروح ! ...

إنها ترنيمة واحدة ممدودة ، تتشكل أشكالا مختلفة ، تارة تعلو فى حدة وعنف ، وتارة تهبط فى خفة ولطف ، فكأنها تحمل إليك شكولا من المشاعر والنزعات ، فيها الوجد وفيها اللهف ، فيها الهيام وفيها الحنين ، وفيها الثورة وفيها الاهتياج ، فيها العتاب

وفيها السماح ... كل ذلك فى لحن مسترسل موصول ، يزينه توافق وانسجام ! ...

وأنت تعجب لهذا الكائن الصغير ، الذى تنطوى حناياه الضئال على هذا الكون الفيّاح ، من العواطف والإحساسات ! ...

تالله لتكسبن من وقتك ما تنفقه فى الإصغاء إلى هذا الشدو الرفيع .

ولعمرى إنك لواجد فى صوت الحيوان الأعجم ، على اختلاف أنواعه ودرجاته ، صورة صادقه للتعبير الصحيح عن الوجدان ، التعبير الفطرى الذى لا تشوبه البرقشة : برقشة الصنعة والتعمل ، برقشة العقل والمنطق ... فهو تعبير من القلب مصدره وإلى القلب مورده ، لا واسطة ولا حجاب .

وهنالك ذلك العالم الذى نعده لا حياة فيه ، عالم الجماد !...

ما أجدره بأن ترهف له السمع ، وتوالى إليه الإصغاء ...

ليس بجماد ما ظننته بجماد ...

فإنه ليزخر بالحس وينبض بالحيــــوية ، ولكنه حس غير ما نعهد وحيوية ليست لها مظاهر حياتنا الدنيا ...

لهذا الجماد نصيب من الحياة فى جرهرها الأصيل ، ومعناها الوسيع ... فما الجماد إلا كائنات عظيمة فى صميمها قبسة الحيوية ، ومنها تتجسم عوالم ودنييات ! ...

أما تاح لك يوما أن تصغى إلى كائن من هذه الجمادات ، وأن يتأدى إليك ما له من وحى وتعبير ؟ ...

أما كانت لك وقفة على شاطىء البحر ، تتملى أمواجه ، وهى تصطفق ، مشركا فى ذلك التملى بصرك وسمعك ، مازجا فيه بين فن التشوف وفن الإصغاء ؟ ...

هبك ماثلا على الشاطىء ساعة غيوب الشمس ، وقد انبسطت على مد الأفق تلك الغلالة الأرجوانية اللامعة ، تثير فى نفسك رواقد المشاعر ، وتحيى بين جنبيك هوامد العواطف ! ...

هبك ماثلا هنالك فى تلك الساعة الساحرة ، وأنت مأخوذ تتطلع ، صامت تتسمع ، أفلا تحس خشوع نفسك ، وتضاؤل شخصك ، حيال هذه القوى الرائعة ، حين تنتسخ آية النهار لتبدأ آية الليل ؟ ...

ألق بسمعك إلى هذه الأمواج التى تتدفق وتتدفع ، حتى تبلغ جدار الشاطىء ، متكسرة عليه ، متفانية فيه ... ألا تستبين فى ذلك الموج ، وفى إيقاعه الراتب المتواصل ، لحنا موسيقياً محكم الوضع ، لا نشوز فيه ولا اختلال ، يتجلى منه الفن فى روحه الأصيل ؟ ...

إنه ليروعك من ذلك الموج الدافق إصرار ودءوب ، فى مصاولة وغلاب ، حتى ينتهى به الأمر إلى تفكك وانحلال ، فكأنه

يمثل لك حياة الإنسان على ظهر هـذه الأرض ، حين يستبد به التكالب والتغالب ، وهو دائب مصرّ ، حتى يطويه شاطىء الفناء ! .

شبيهة تلك الأمواج ، فى رحلتها من الأقاصى ، وتهالكها عند الشاطىء ، بتلك الأسراب من الطيور الجوّابة ، فى هجرتهـا من مواطنها زرافات ، وتهافتها فى مطارح الغربة تقتنصها الشباك ! ...

ولربما برزتَ إلى البحر ، ضائق الصدر ، فتاهت نظرتك فى أكنافه الشاسعة ، وراعتك جوانبه وقد ترامت يمنة ويسرة ، حتى التقت بالأفق فى فضاء بعيد جدّ بعيد ... فلا تلبث أن تجد نفسك قد انفكت من عقالها ، واستخفها طرب ومراح ، فحلقت بك فى الآفاق تجوب أرجاءها فى حرية وانطلاق ! ...

فى هذه اللحظة الساحرة ، لحظة التحرر والتطلق ، تعلو أناشيد البحر مصافحة سمعك ، قائلة لك :

حطم عن نفســـك الأغلال الثقال ، واخلص بروحك من قيودها الصعاب ، واسرح فى ملكوت الله الواسع العريض ، فمـا خلقتَ إلا لكى تكون حر النفس ، طليق الروح ! ...

ولعلك إن صافيت البحر فى جلستك إليـــه ، فأنس إليك ، وطاب له السمر معك ، تجلى لك محدثا بارعا لا ينفد لحديثه فيض ، فهو يفضى إليك بمـا وعاه صدره من أحداث الأيام ، وأسرار

الليالى ، تالياً عليك صفحات من حياة البشرية فى مآسيها الفاجعة ، وأمجادها الرائعة ، وما تعاقب عليها من هزيمة أو انتصار ، ومن نهضة أو اضمحلال ! ...

وما أوفر حظك من المتعة إن خصك البحر من أحاديثه بتلك الأساطير الظريفة الساحرة ، تصف لك ما تحويه البحار من عوالم خفية غامضة ... عوالم تشمخ فيها قصور ، وتدور فيها عجائب من شئون وتصاريف ، وتنساب فى جنباتها فاتنات الحور من بنات الجن ! ...

ذلك كله بعض ما يوافيك به الإصغاء إلى البحر إن أصغيت إليه ...

ولن تكون أقل من المتعة حظاً لو أصغيت كذلك إلى عالم آخر من تلك العوالم التى لا تعدها فى الأحياء ، أعنى عالم الهواء ...

يترسل الهواء إليك نسيما هفهافاً رخى الخفقات ، فتسمعه يناجيك بألحان الحب والعطف والرحمة ، ولا يدعك إلا وقد ملأ قلبك من طمأنينة وبشر ، وأراك الدنيا رَوحا وريحاناً وجنة نعيم ! ...

وحينا ينقلب ريحاً صرصراً عاتية ، فيزف ويعصف ، كأنه يلقى عليك قولة الشر والقسوة والبغضاء ، مثيراً بين جوانحك الرهبة

والذعر ، فلا تلبث أن ترى الدنيا كأنها تبعث عوياها فى أثر الفواجع والنكبات !...

وقل مثل ذلك فيما شئت مما تحويه عوالم الجماد ... فإن لكل منها حديثاً شائقاً ، يحفل بالحكمة والروعة والجلال !...

أرأيت إلى الصمت بين الطلل الشاخص ، والرسم الدارس؟... كيف هو إصغاء للتاريخ يبثك حديث الأمس القريب أو البعيد ، ويسترجع لك خوالى الحقب وغوابر الأحداث ، فإذا أنت فى خطفات من وقتك ، إزاء هذه الأطلال الشواخص والرسوم الدوارس ، تستجليها جديدة البنيان ، شامخة الأركان ، متخذة أبهى زينة وزخرف ، آهلة بمن عمروها من الناس كأن لم يترحلوا عنها ، وكأن لم تلعب بها وبهم دائرة الأيام؟!...

أرأيت إلى الصمت فى بيوت الله ، من معابد ومعاهد ، كيف هو إصغاء إلى هتفات سماوية من القدس الأعلى ، تندى بها نفسك القلقة الحيرى ، كما يندى ظامىء الزهر ، فى مطالع الأسحار ، بما يتهادى عليه من قطرات الطل ... فتحس بروحك قد شملتها هزة من نشوة وانتعاش ، هى هزة الرضا والإيمان !...

أرأيت إلى الصمت ، فى مدينة الصمت ، مدينة الموتى ، بين الضرائح والقبور ... كيف هو إصغاء لأروع ما تمخضت عنه

فلسفة الأزل ، وحكمة الأبد ، من حقيقة خالدة تذوب حيالها أكذوبة الحياة ، وتتقاصر دونها طاغية النفس ، وينهار أمامها جبروت الكائن الحى ، حيثما كان ؟! ...

فاصمت ما وسعك أن تصمت ، ولكن لا يكن صمتك ركوداً وغفلة ، بل إصغاء واعياً ينيلك أوفر الجدوى ! ...

اصمت ما وسعك أن تصمت ، فإن لم تغد من صمتك نفعاً ، فإنك لاتجنى منه شراً ، فما الصمت على أية حال إلا راحة للحى ، وما الموت إلا صمت شامل ، يكفل للحى الراحة الكبرى ! ...

آمنتُ بالحربِ !...

العالم اليوم قلق مستوفز ، يعانى ألواناً من الهلع والفزع ، لا يكاد يطعم السكينة والقرار ، فهو من عيشه فى حالة شاذة كأنها بركان حبيس ، يفور ويمور ، ولكنه لا يثور !...

هذا البركان الجياش تتواصل زلازله ، فيزعزع النفوس ، ويرجف القلوب ، وينزع من الحياة صفاءها ، ويكسو الدنيا صبغة الليل البهيم !...

إنه الخوف من الانفجار ، وهو خوف دائم غير مقطوع ، ولا ممنوع ، فلا الانفجار يقع ، ولا الزلازل تهدأ !...

مثل لعينيك امرأ يخطو على أرض لينة ، تميد به يمنة ويسرة ، فهو أبدا يترنح لا يتمالك ، يكاد يسقط فيستجمع . ولا يزال على حاله ، ما إن يخطو خطوة إلا أسلمه اضطرابه إلى اضطراب .

كذلك مجتمعنا الحاضر فى شرق وغرب !...

صراع مرير بين المبادىء وأوضاع الحكم ، وتنافس عنيف

فيما بينها على أن تفرض سلطانها فى الأرض ، ومن وراء هـذه المبادىء والأوضاع أصحابها ينشدون لأنفسهم بسط النفوذ ! ...

ومن عجب أن هؤلاء الدعاة إلى مختلف المبادىء والأوضاع ، لا يختلفون فيما يتخذون لأبواقهم من أقوال ، فألفاظ الديمقراطية والحرية والعدالة الاجتماعية ؛ — يتجاذب أطرافها أولئك الذين يتنافرون فيما يدعون إليه من مبادىء وأوضاع .

ومن ثم اختلط الأمر على جمهرة الناس ، فأصبحوا فى فكر مبلبل ، ورأى مقسم ، يضنون بثقتهم أن يركنوا بها إلى مبدأ أو وضع من تلك الأوضاع والمبادىء ، ويشفقون أن يكون ماحسبوه عدلا وحقاً ، هو الظلم البين ، والباطل الصراح !...

ولعلى لا أغلو إذا قلت إن الجوهر الأصيل لتلك المبادىء والأوضاع لم يعد واضحاً للعيون ؛ إذ توارت أشعته وراء الحجب المتكاثفة من غيوم الدعايات بين معارضة وتأييد ، فلقد سخرت لهذه الدعايات قوى المنطق والبيان ، وجندت لها فنون التأثير والإغراء ! ...

إن الذكى الفطن اليوم ليرى لزاما عليه أن يتهم ذكاءه ، وفطنته إزاء ما يقرأ وما يسمع ، مستريبا بهذا وذاك ، لا يلقى قيادة لحجة وإن سطعت كعمود الصبح ، ولا يؤمن لقول وإن بلغ من نفسه

كل مبلغ ، وسينتهي به الحال على هذا المنوال إلى أن ينكر ما له من عقل ، أو بالحرى يثور عليه عقله فينكره فإذا هو مخبول !...

دونك كلمة « السلام » الغراء ... تلك التي يتفنن الساسة ورواد الرأى العالمى العام فى الاعتزاز بها والحرص عليها ، فهم جميعاً يتبنونها ويولونها العطف السابغ والتكريم البالغ . كل مبدأ من المبادىء يهتف بالسلام ويزعمه ، وكل وضع أوضاع الحكم يدعى أنه يدعمه ، وكل دولة تنازع غيرها فيه ، وتزاحمها عليه ، والسلام بين مختلف الدول حائر مضطرب يصيبه الدوار من فرط المزاحمة والنزاع !...

لقد صار هذا السلام المسكين بين جبهات الدول : « كرة قدم » ، تتخاطفها الرماة ركلا وقذفا ، وما من دولة استطاعت حتى الآن أن تصيب الهدف ، وأن تُدخل السلام فى مرماه ، وإنما الدول كلها فى الميدان معه ، يدور بها وتدور به ، وسيفضى الأمر حتما إلى أن تقع الدول جميعاً ومعها « كرة السلام » صرعى فى الميدان !...

كان من أثر ذلك الصراع الدولى الظاهر والمستور أن انطوت القلوب على الضغائن والأحقاد ، وذهبت الثقة فى التفاهم والتعامل ،

وقويت الحيطة والتوجس ، فإذا كل دولة ترى فى الأخرى عدواً يتربص بها الدوائر ، فإن ابتسمت دولة لأختها لم تكن ابتسامتها إلا مجاملة لحظة ، أو بريق خدعة ، تستدنى بها الفرصة ؛ لكى تضرب الضربة القاضية ! ... فهى ابتسامة أشبه شىء بالتكشير عن الأنياب للافتراس ! ...

كيف تدوم هذه الحال ؟...

أيحيا العالم على توفز وارتقاب ؟...

أليس لهذا البركان الفوار أن يهدأ زلزاله ، أو أن تنفجر منه الحمم ؟...

إلى سلم نحن صائرون ؟... أم إلى حرب نساق ؟...

أما الحرب فإنها لواقعة ... ما فى ذلك ريب ، وما من ذلك مناص . وقد يستأخر وقوعها حينا يطول أو يقصر ، ولكنها كقيام الساعة لابد آتية ! ...

الحرب لا يمنع حدوثها إلا أن تكون معجزة ، فتعالج المشكلات الدولية بروح التفاهم على أساس من العدالة والحق ، بيد أن المعجزات أندر شىء فى الوجود ، وانتظار المعجزة ضرب من اليأس ، وما بنا من صبر ولا جلد ، فقد نهكت منا الأعصاب ، وضاقت الصدور ، وبلغت الروح الحلقوم ، فلو قعدنا نناجى المعجزة

كما يناجى العاشق طيف الحبيب الهاجر ، لما استجابت لنا إلا وقد عدونا أشلاء فاقدة الحراك !...

من خير الإنسانية أن يسعى من بيدهم أمر هذه الأرض الشغوب إلى إشعال نار الحرب ، فلو لم يكن فى إشعال نارها إلا قطع الشك باليقين ؛ - لكفى بذلك فضلا ونعمة ، ففى اليقين راحة ، وفيه تبصرة لمن يعمل . حتى يتعرف غايته ، ويمضى إلى هدفه ، لا يظل على حاله فى ظلمة حالكة يخبط خبط العشواء .

ليس فى إشعال نار الحرب جريمة ، فما الحرب إلا عمل جرىء فيه للبشرية المعذبة دواء وشفاء ، وما الحرب إلا « جراحة » خطرة للعليل الذى ألح عليه السقم ، واستعصت به العلة ، فإن أجريت له الجراحة على خطرها نهض بعدها يدب على الأرض باسم الثغر ، عريض الأمل !...

الحرب العالمية فى هذا العصر الذى نقاسى فيه القلق والاضطراب ، شأنها كشأن الثورة فى أمة استشرق فيها الفساد ، وتغلغل الانحلال ، وتقاصر ولاتها عن تدارك الأمر وتلافيه ، فانبعاث الثورة لتقويض هذا البنيان المستهدم واجب عظيم !...

الثورات — وإن بدت فى صورة مفاجئة — ليست إلا لونا من الأحداث الطبيعية التى لا غرابة فيها ولا شذوذ ، فما أقرب

شبهها بالثمرة تسقط على رأس النائم فى ظل شجرة ، فهو يهب من رقدته قد أزعجته الصدمة ، إذ لم يكن من أمرها على ترقب ، ولكنه لا يلبث حين يتلمس الثمرة أن يجدها قد استوفت حظها من النضج ، وما سقطت إلا لأنها ناضجة ، وإنها إذن لثمرة طيبة فيها غذاء !...

وما أرى الحرب إلا موشكة أن تقع ، فهى ثمرة قاربت النضج ، وإذ أهمل الساسة العالميون اقتطافها ، وأبوا أن يمدوا أيديهم إليها لينتزعوها من بين الغصون ، فإنها واقعة حتما على الرءوس ، توقظها من الغفلة الساذجة أو التغافل المقصود !...

لا تقل : بئست الحرب ؛ فإننا فى حال من الحرب أدهى وأمر !...

مثلنا فيما نحن فيه كمثل الذى نضا ثيابه عنه ، ووقف قبالة البحر يبغى أن يستحم فيه ، واليوم عاصف . ولكنه ظل على الشاطىء يرقب الموج المنـــدفع ، ولا يلقى إليه ببدنه ، خشية أن يغرق . وثيابه عن كثب منه ، لا يمد إليها يده ، فيستر بها جسده فلا هو بقادر أن يتقدم ولا هو بقادر أن يتأخر : الريح العاتية تزعزع كيانه ، وتثير فيه انتفاضاً وقشعريرة ، وتملأ سمعه بالدوى ، ورذاذ الموج يترامى إليه شديد الوقع ، كأنه القذائف أو السهام !...

العالم اليوم عريان على شاطىء البحر ، أو شاطىء الحرب !...

الزعازع تتناوشه ، والشظايا تتساقط عليه ، وهو فى موقعه مقشعر مقرور كأنه محموم ! ...

ماذا فى الحرب يخشاه العاملون على خير الإنسانية ؟...

هذه الحرب أتون عجيب لا يباريه شىء فى سرعة الإنضاج ، فسرعان ماتنضج الحرب مختلف الآراء والأفكار ، وسرعان ماتعجل بالمخترعات والمبتكرات ! ...

ما أبطأ التطور الاجتماعى فى عهود السلام ! ... وما أعجله فى عهود الحروب والثورات ! ...

أليس فى السرعة والتعجل اقتصاد للزمن ، تفتقر إليه الإنسانية فى سعيها الحثيث إلى المثل العليا والكمال المنشود ؟! ...

تدبر مليا ما كسبه العالم من تطور فى الاجتماع والاقتصاد ، وفى التربية والتعليم ، وفى الآداب والفنون ، وفى الجراحة والتطبيب ، خلال نصف القرن الماضى ، ألم يكن ذلك الكسب الكبير وليد هاتين الحربين العالميتين ، فى نطاق تلك الأعوام الخمسين ؟...

لا مشاحة فى أن الحرب موقد عبقرى لإنضاج الجديد من الآراء والأنظمة ، وإنها كذلك غربال سحرى لانتخال القديم مقومات الأمم وما لها من عادات وتقاليد ، فما كان منها غير صالح ذهبت به الريح ! ...

أما المخترعات والمبتكرات فى ميدان الصناعة ، وبخاصة ما يتصل بالأسلحة الحربية وما لها من ذخيرة وعتاد ، فإنها — ولا أزيدك علما — تنمو وتغزر فى زمن الحرب ، كما تزدهر الرياحين فى إبان الربيع ، ثم تغدو هذه المخترعات والمبتكرات ميراثا طبيعياً تنتفع به الحضارة من بعد فى عهود السلام ! ...

الحرب حكم عرفى ، وقضاء عسكرى ، لا يعرف التسويف والمماطلة ، ولا يأبه للمجادلة والمماحكة ، فهو لا يلبث حين ترفع إليه الخصومة أن يقضى فيها بقول فصل ، فطابع الحرب هو ذلك الطابع النفاذ من الحزم والحسم ، وفيه منافع للناس .

لتكن الحرب محنة ، فإن المحنة يعدها المرء امتحاناً له ، ويحمد لها ما تفيده من تجربة وعظة ، والحرب كذلك امتحان للشعوب! ...

من يتلقى الضربات بصدر قوى ، ثم ينهض ليتابع سيره ، هو الذى يكتسب حق الحياة ، ومن تصرعه الأزمات والشدائد يخلو مكانه فى الزحام ، وتتخطاه الأقدام .

ما لنا وللحرب نحذرها ؟...

ألم يصبح للنصر والهزيمة مدلول عصرى جديد ؟ . . . ربما خرج المغلوب عليه عزة الانتصار ؛ إذ يتعظ بهزيمته ، فتستنير بصيرته ، ولا يعتم أن يشحذ همته ليستعيد مكانه أرفع مما كان .

وربما خرج الغالب وفيه ذلة الانتحار : إذ يستنزف الغلب فتوته وعزمته ، ولا يجد فيما كسبه إلا سراباً لا ماء فيه ، فينكشف عواره ، ويرجع بخسران مبين !...

هذه الحرب توقظ الأمم من سباتها راضية أو كارهة ، فهي تلهب الظهور بالسياط ، فيدب النشاط في الأوصال ، وتملأ الحيوية ما بين الجوانح !...

إنها خروج بالإنسانية من حظيرتها التي تدور فيها ولا تفتأ تدور ، وتجديد لجهازها الذي علاه الصدأ حتى تعطل ، فإذا الإنسانية تشق لها منفذاً إلى الأمام !...

وإذا كانت الإنسانية — وا أسفاه — لا تبلغ ذلك إلا بالدم المسفوك ، تؤديه ضريبة للكسب الجديد ، فتلك سنة الكون للبشر ، وحكمة الأزل إلى الأبد :

على قدر الأخذ يكون العطاء !...

تطهير!...

أليس عجباً أن نرى هذا الجمع الوافر من الموظفين والقائمين بالشئون العامة بين كبير وصغير ، يتناولهم فى العهد الجديد منجل التطهير ؟...

أوليس يزداد العجب إذ نرى من بين هؤلاء كثيراً ، كانت تستشرف لهم الأعين ، وتهفو القلوب ، لما يستمتعون به فى الناس من حظوة مغبوطة ، ومكان مرموق ؟...

أما وذلك ما كشفت الأحداث عنه الغطاء ، فليقل من يقول إن الفساد فى هذه البلاد قد استشرى واستفحل ، وإن الداء قد أعضل وتغلغل ، فاستباح مختلف المرافق ، وتنقل فى شتى المناطق ، حتى لم يستعصم دونه مرفق مقدس ، ولم تمتنع عليه منطقة حرام !... ولئن كانت حقيقة الأمر كما تدل عليها ظواهره ، إن الخطب لفادح ، وإن الرزية لتجل العزاء ، وإنه لا سبيل إلى الإصلاح ولا رجاء !...

أحقــاً ؟...

كلا ، وربك ! ...

فى قليل من التدبر مايجلو عن النفس غشاوة اليأس ! ...

هذا المظهر السيء الذى يبدو فى الناس ، كثر عددهم أو قل ، لا يستمد السوء كله من طبع فاسد وشر متأصل ، وإنما هى عوامل البيئة أوحت وألهمت ، وملابسات العهد أغرت وأوعزت ، والبيئة تتحكم ، والملابسات تدفع ، والنفس تغرها ألوان الملذات والمتع ، وتخدعها فرص الكسب والاغتنام ، فتنساق إليها ماوجدت طريقاً يأمن سالكه من خوف أو يسلم من ملام ! ...

أعجوبة الأعاجيب — فيما أظلته السماء — هذه النفس البشرية فهى مستودع المفارقات والأضداد ، وهى للخير والشر كليهما ولود وإن قواها وملكاتها لتظل حبيسة غافية ، يجهلها صاحبها أو يكاد ، ولا يعرفها له صاحب أوعشير ؛ فمن تلك القوى والملكات مايستيقظ فى أناة ومهل ، فينمو نموه الطبيعى طوراً بعد طور ، ومنها ماينبعث من أغواره بغتة كأنه الحمم ينفجر بها بركان ، وذلك كله إنما يجرى وفق البيئات وطوع الملابسات . فالنفوس خيرة حيث يكون الخير موفورة دوافعه ، وهى شريرة حيث يتوهج الشر حولها ، يثير فيها طوايا الأهواء والنزوات ! ...

مسكين هذا الإنسان ! ...

لقد شاءت له إرادة الله أن يكون مزاجا طريفاً من هاتين القوتين المتنازعتين : قوة الخـــير وقوة الشر ، ولا تتحقق لذلك المخلوق إنسانيته إلا إذا كان قادراً بطبعه على أن يكون خيراً شريراً فى آن . فما الخير والشر إلا عاملان طبيعيان خلقا معه ، وسكنا فيه ، ودارجاه فى أطوار حياته ، فهما يتعاورانه لا ينفكان عنه ، وهما مصطلحان عليه ما عاش ! ...

تحدث إلينا نفر من مؤرخى الثورة الفرنسية ، فذكروا فيما ذكروا أن لفيفاً من أصفى النساء قلوبا ، وأودعهن طباعا ، وأكثرهن إشفاقا ، مالبثن بين عشية وضحاها أن انقلبن — فى أتون الثورة الدامية — نمرات ضارية ، يُزعمن على الجماهير ، ويؤججن المعارك ، ويتقدمن صفوف الهجوم ، ويحملن المعاول والحراب ، فيجرين — بأيديهن الناعمة البضة — أنهار الدم المسفوك ! ...

لقد كمنت فيهن من قبل روح القساوة ، وانقمعت شهوة الفتك ، ولكنها بقيت فى قرارات النفوس تحت أثقال جسام ، فلما انزاحت الأثقال ، وأتيح لهذه النزعات أن تتنفس ، لم تملك إلا أن تخرج فى ضراوة وشموس ، لكى تصاول فى عتو وجبروت ! ...

وعكس هذه الظاهرة نلمسه فى فئة ممن تورطوا حيناً فى مزالق

الخطايا والآثام ، ثم انقلبوا إلى بيئة — غير بيئتهم الأولى — تسودها الطمأنينة والدعة ، فاستقاموا على الطريق ، وأصبحوا من أخلاقهم وسلوكهم على هدى ورشاد ، بل لعلهم صاروا مضرب الأمثال ، فى العدالة والفضيلة والإسراع إلى الخيرات ! ...

وطالما قص علينا ثقاة الرواة أنباء أناس كانوا يحيون الحياة الدارجة ، لا يعرف لهم قرناؤهم وعشراؤهم ميزة ظاهرة ، ولا يذكرون لهم طابعاً يختصون به ، فإذا هم تصادفهم فى طريق العيش أحداث عابرة ، فما هى إلا أن تثير بين جنوبهم قوة من الإيمان خارقة ، فتراهم متحنثين غلاة ، حتى لتبدو فيهم من القديسين مشابه ، فهم يروعونك بالعجب العجاب ، فى نوبات الغيبوبة الصوفية التى تساورهم بين حين وحين ؛ إذ تنتجأ على أجسادهم ندوب من جراح دامية ، ولا يكاد الوعى يعاودهم حتى تتزايل الندوب وتندمل الجراح !...

ودونك العباقرة ... إنهم لمدينون بتفوقهم وتخرجهم لما أحاط بهم من بيئة وما تاح لهم من ملابسات ، أكثر مما هم مدينون بذلك لشعلتهم المقدسة ، التى كانت لهم هبة من السماء ! ... فهذه الشعلة المقدسة تمكث مستخفية فى النفس ،

طافئة لا تحس لها من وهج ، فإن لقيت ما يثير وقدها شبت نارها تضطرم ، ولو سارت بها الحياة فى طريقها المألوف ، لكانت عسيَّة أن تخبو وتخمد ، لا ينتفع بها أحد !...

مرجع الأمر فى انبثاق معظم القوى النافعة أو الضارة إلى حوافز البيئة ومؤثرات الحياة الملابسة ، فما الخير والشر فى كل امرىء إلا وليد التجاوب فى مزدحم الناس !...

فإذا كنا نراع الآن بما يكشفه البحث والتقصى ، من كثرة عدد المفسدين من أسناد العهد الماضى ، ومن طغيان الشر فى تلك الأيام الخالية ، فلنطمئن بأن ذلك كله فى حقيقته وجوهره لا يدعو إلى تشاؤم ولا يبعث على يأس !...

ولعل كثيراً من أولئك الذين كانوا صرعى البيئة الغالبة ، وضحايا الملابسات الدافعة ، لا يعز عليهم أن يتطهروا ويتجددوا ، وأن يكونوا أعواناً للحق والفضيلة والعدل ، وأن البيئة الجديدة فى طهرها ونقائها وشريف سعيها لخليقة أن تكبت فيهم نوازع الشر ، فإذا هى تضمر وتضوى ، تاركة مكانها انزعات أخرى من الخير والإصلاح ، تنمو بين جنوبهم فتهدى إلى الأمة أطيب الثمرات !...

لا ريب أن هذا العهد الجديد له على النفوس سلطان عظيم ،

فهو يرد فاسدها إلى الصلاح ، وهو يكبح فيها ما كان من جماح ؛ فللمستقبل نهضتنا البعيدة المرمى ، بما يجب لها من بعد النظر ، وسعة الأفق ، فنفسح مجال العمل لكل من يبغى العمل فى إخلاص ، حتى نظفر بكل ذى حيوية وثابة ، ونشاط مثمر ! ...

علينا أن ننتخل ما لدينا من العناصر ، وألا نحسبها فاسدة لا يرجى منها خير ؛ فإن حاجتنا إلى استخدام القوى والعزائم والكفايات لا تقل على حاجتنا إلى فضيلة الجهر بالتشيع للحق ، والمناصرة للعدل ! ...

الآن وقد أخذ السيل العارم يتخذ مظهر المجرى الرقيق ، ومضى يشق طريقه ليروى الأرض الموات ، علينا أن نؤلف بين القلوب ، وأن نوثق بين المواطنين رباط التآخى ، ونشيع بين صفوفهم روح الوئام ، فإن النهضة الحاضرة مثالية الأهداف خيّرة الأغراض ، تنشد المصلحة العامة ، وتعمل للغد القريب والبعيد ، وإن مجتمعاً يتولى قيادته الهاتفون بهذه المثل الغالية فى بناء الأمم ، لهو مجتمع جدير أن ينعم بإصلاح وارف الظلال ، إصلاح يباركه الله ، ويدعو له الأطهار المخلصون .....

كيفَ هَزمتُ عَدُوّى الأول ؟...

سمعت امرأ يقول :

لو كنت أملك صحتى ، وصفاء ذهنى ، وطمأنينة الحياة من حولى لاستطعت أن أقوم بأعمال جسام ، وأكتب لى صفحة حافلة بآيات النجاح ! ...

لبثت أفكر فى هذا القول ، فبدا لى أنه منطق معكوس ، وكان جديراً بصاحبه أن يقول :

لو كان لى عمل أومن به ، وأقبل عليه ، لأ بلغنى هذا العمل ما أنشده من موفور الصحة ، وصفاء الذهن ، وطمأنينة الحياة! ...

لقد أملى علىّ هـــذا التصويب خبرة خاصة ، هى الزبدة من تجربة العمر ! ...

أصبحت معتقداً أن الإيمان بعمل ما ، والشغف به ، هو خط الدفاع الذى يحمى المرء من مكاره اليأس والقلق والتهيب ، وهو الينبوع الذى يفيض على النفس مشاعر الفوز وكسب الحياة ! ...

كيف يحين عن الحياة من يعتقد أن له فيها عملا يضطلع به ، وأن له فيها ثمرة يرتقب أن يحين قطافها يوما بعد يوم ؟...

لا غرو أن يرفع العمل من معنوية الإنسان ، وأن يحبب إليه العيش ، وأن يدفعه فى سبيله إلى المجالدة والصراع . فتقوى فيه روح المغامرة ، ويمضى به الطماح إلى بعيد الآفاق !...

كنت أجتاز عامى السابع ، فإذا المرض يدهمنى ، وإذا هو ثقيل الوطأة يتهددنى ، وقد استلان جانبى واستضعفنى ، حتى بلغت عصر الشباب ، وأنا أكاد أستيئس من الحياة ، وأحس دنو النهاية القاضية ! ...

ولكنى فى هذه الفترة وجدتنى أنساق إلى نوع من العمل ، أدين له الآن بكيانى كله ، ذلك هو الأدب ... تعلقت نفسى بأن أبلغ منه مأربا ، وأرمى فيه إلى هدف ... إذ كانت « مصر » لذلك العهد فى مقتبل نهضة ، وبواكير ثورة ، والوعى القومى يستشرف لطابع وطنى خاص متميز فى مرافق العيش ، فاستهوانى أن أسعى مع الساعين إلى تقويم الطابع المصرى للأدب فى إطار من القصص الفنى ، فجرى هذا العمل تيارا فى دمى ، وصار جوهر حياتى ، يملك على أمرى كله ! ...

وعلى الرغم من أن المرض لم يتخل عن صحبتى ، فهأنذا

أستكمل الستين من عمرى ، وما زلت حياً أرزق ، بفضل ذلك العمل الذى حمانى من الهزيمة والانهيار ، بل إنه كان يعمر قلبى بالأمل ، ويفرغ على نفسى الثقة ، وينضّر أمام عينى وجه الحياة ، فأنظر إلى المرض ، نظرة الاستهانة والاستخفاف ! ...

بالعمل وحده استطعت أيضاً أن أواجه الأحداث التى تتمخض عنها الليالى والأيام ، فلست أنسى أنه لم يكن لى عزاء فى نكبتى بفقد وحيدى ، منذ سنوات عشر ، إلا أن ألقى بنفسى فى غمار عملى ، حتى أتممت روايتين مطولتين فى قصير من الوقت ... وخرجت من فورة هذه المحنة ، أحمد للعمل ما حمانى به من لوعة الحزن وحسرة الفقدان .

وإنى لأزجى أثقال الحياة ، وهموم العيش ، بتلك الساعات التى أندمج أثناءها فى عملى ، فأصدر عنه كأنى أصدر عن مستحم يفيض على جسدى النشاط والحيوية والانشراح ! ...

لقد غدا العمل عندى لونا من العبادة ، فأنا أعتقده ، وأعتدّه من شعائر الدين ! ...

ما أشبه العمل بالصلاة ! ...

فما الصلاة إلا تأمل فى صميم الوجود ، وترفع عن توافه الدنيا وصغائر العيش . وما العمل إلا استغراق فى أعماق الحقائق ،

وعزوف عن التفاهة والفراغ ! ...

بالصلاة تتخلص النفس من شوائبها ، فتتسامى إلى آفاق علوية صافية ، وبالعمل تتجرد النفس للأهداف المرسومة ، وتتحرر من تلك النوازع والنزوات التى تجر إلى الشرور والآثام ! ...

إذا كانت الصلاة مظهر الطاعة لله ، بها يستمد الإنسان على ظهر الأرض قبساً من نور السماء ، فالعمل هو جوهر الطاعة والتعبد والاندماج بين الخالق والمخلوق ! ...

متى أخذ الإنسان فيما بين يديه من عمل ، فهو يؤدى الجانب الذى فرضه الله عليه من رسالته إلى سائر الناس ، رسالة العمل ، رسالة العمران على اختلاف مدلولاته ومعانيه .

أنا فى إقبالى على عملى الذى أتوجه إليه أحس بأنى أصلى لله ، وأؤدى ما كتبه علىّ ، وكأن يد الله تدفع بى ، وتبارك جهدى ، وتحفنى بالرعاية والرضوان ! ...

وأصارح بأنى فى بعض الأحيان قد أضيق بعملى ، وأحسبنى منه فى رهق ، وأكاد أهم بأن أثور عليه ، ولكن سرعان ما أجدنى قد سكنت ثورتى ، وذهب عنى الضيق ، واحتملت للعمل ما يجشمنى من جهد ، وأهم بأن أنحنى على أوراقى أستغفرها مما أبديت لها من

غضاضة وإعراض ؛ إذ يتمثل لى عدوى الأول الذى هزمته فى مراحل حياتى السالفة ، ذلك الشبح المرهوب ، شبح الفراغ ، شبح الإقفار من الأهداف ، شبح الجدب الذى يطبع الحياة بطابع التفاهة والعقم . فأرانى قد هششت لعملى وحننت إليه ، وارتضيته ظهيراً لى فى الظفر بمعنى الحياة وجوهر العيش ، فأجلس إلى مكتبى ، آخذا بقلمى ، منكباً على أوراقى ، أستمرىء نشوة الانتصار !...

نبوءة في عالم الفن: كتاب المستقبل

إنها كلمة أقولها على ثقة ويقين ، وإنى لأراها بظهر الغيب ، ولكأنى بها حقيقة ماثلة فى قريب من الأيام أو بعيد ! ...

هى نبوءة لا أتصيدها من آفاق الوهم ، ولكنى أستوحيها من التأمل والتدبر ، طوعا لما تسلم إليه المقدمات الصادقة من نتائج محتومة ، فهى آتية لاريب فيها ولا مراء ! ...

هذه النبوءة ، أو تلك الكلمة ، أن «السينما» هى الميدان الأكبر لثقافة المستقبل ، وهى المظهر الأعلى لحضارة الغد ! ...

أرأيت إلى « السينما » اليوم كيف تتطور آلاتها ، وتتفنن فى التسجيل والعرض والإخراج ، مذللة ما يعترضها من عقبات وعراقيل ؟... أرأيت إليها كيف بلغت شأواً رفيعاً فى التعبير عن مختلف ألوان الفنون ؟... ألست تجدها لا تفتأ تحاول تقريب ضروب الثقافات فى مجال العلم والكشف والاختراع ؟...

ألا يكون هذا خليقاً بأن يلقى فى روعنا أن « السينما » ماضية

فى هذا الطريق ، حتى تكون الدعامة التى يقوم عليها صرح العلم والفن ، وأن نشاطها سيظل متغلغلا فى شتى مناحى الثقافة ، حتى تصبح الأداة الأولى فى تلقين المعارف وتكوين الملكات وتقويم الأذواق ؟...

« السينما » موشكة أن تهيمن على معاهد العلوم والفنون ، حتى لا يستطيع التعليم أن يؤدى مهمته إلا معوّلا عليها فى إبلاغ رسالته إلى العقول والأفهام !...

سوف يتلقى الطالب غداً درسه فى بهو العرض ، فيتابع دراسته بعينيه وأذنيه ، رانياً إلى ذلك اللوح الفضى الماثل أمامه ، تتراءى عليه المشاهد ، فى أسلوب تربوى جديد ، يساير عصره المرموق... وأن يتزايل أو يتضاءل « المعلم الحى » الذى عرفناه ، وكذلك « الكتاب المطبوع » الذى ألفناه ، ولا أقل من أن يتزحزح كلاهما عن مقامه المعهود ، ولا يبقى له أثره المباشر فى مجال التربية والتعليم ، وربما اتخذ المعلم أو الكتاب مكاناً آخر تالياً ، يتولى فيه مهمة التعقيب والشرح إذا احتاج الأمر إلى شرح وتعقيب !...

سنشهد انقلاباً خطيراً فى ميدان التربية العملية على تباين المناهج والمراتب والدرجات ، فإذا هو يستغرق مراحل التعليم من دقيقها فى « الروضة » إلى جليلها فى « الجامعة » ... وأعنى بهذا الانقلاب

الخطير عنصر التحبيب والتشويق ، فلن يغدو الدرس من بعد اليوم مر الطعم كريه المذاق ، تضيق به أنفس الطلاب ، ولكنه سيكون فيه لأنفسهم متاع ، وفيه لأرواحهم إيناس ، فيقبلون عليه فى شغف.

هذا درس من دروس التاريخ ، يتناول مثلا عصر « خوفو » ومن إليه من بناة « الأهرام » ، لا يقرؤه الطلاب سطوراً فى صفحة كتاب ، ولا يسمعونه حديثاً من فم معلم ، بل يشهدونه صوراً لذلك العهد ، فيها تسخيص لأحداثه ، وتمثيل لأشخاصه ، وفيها كذلك تعبير عن بيئته ومقوماته . فيرون التاريخ ماثلا لأعينهم يعيد نفسه ، ويسمعون حوار أبطاله ، كأنهم يقاسمونهم أسباب العيش !...

وذلك درس من دروس الجغرافية فى شأن « النيل » ، فسيشهد الطلاب ذلك النهر العظيم يتحدث إليهم عن كيانه ، ويروى لهم قصة حياته ، ويطلعهم على ما مر به من أطوار ، وما تعاقب على ضفافه من حضارات ، وما كان له من أقدار شقاء أو نعيم .

وهل يعيا اللوح الفضى بأن يصوغ للطلاب من مواد الجبر والهندسة والطبيعة رموزاً وأحاجى تروق وتشوق ، فى أسلوب رائع قوامه الصورة والحوار ؟...

فأما تعليم اللغات ، فحدث عن « السينما » فى قدرتها على تيسير ذلك وتقريبه !... إنها تصحب الطلاب فى سياحة طريفة إلى البلد

الذى هو موطن اللغة الأصيل ، فتخالطهم بأهله ، وتسمعهم من أحاديثهم ومحاوراتهم ما يكتسبون به قواعد اللغة ولهجتها ، وطرائق استعمالاتها فى أصالة ودقة ، غير مرهقين أنفسهم بالحفظ والاستذكار ، ولا راصدين أكبر وقتهم لأداء ماتلزمهم به المدرسة من فروض وواجبات ! ...

ولسوف يكون « للسينما » فى دراسة الطب شأن أى شأن ... فهذه الجراحات فى شتى أنواعها وتفاصيلها ودقائقها يشرحها اللوح الفضى فى ترغيب ، وتلك الأمراض على تباين أسبابها وأعراضها تتجلى فى أجساد المرضى حالا . بعد حال ، وذلك تأثير العقاقير يتوضح طورا بعد طور ، وهذا علم الجرائم يتكشف للأنظار فى مغامرات لا تقل طرافة عن مغامرات « تيرون باور » و « ريتا هيوارث » وأمثالها فيما نعرف لهم من أروع الأفلام ! ...

وما أجمل أن يتوافد طلاب الحقوق ، ليشهدوا على اللوح الفضى قاعات المحاكم ، تتوارد عليها القضايا ، وتتجاوب فى أرجائها المرافعات ، فلا تلبث الحقائق والمعلومات أن تستقر فى أذهان الطلاب على نحو تتوافر له أسباب التسلية والإمتاع ! ...

ولك أن تقيس على هـذه الأمثلة ما يزاوله المتعلمون فى

المعاهد والمدارس من علوم وفنون ! ...

ستنقلب « القاعة المدرسية » بهوا للعرض ، وسيستحيل « الكتاب المدرسى » فلما سينمائياً للمشاهدة ! ...

وإذا كان المعلم ينفرد بإعداد « الكتاب » ، فإن الفلم السينمائى المدرسى سيشترك فى إعداده المعلم وكاتب « السناريو » والممثل والمصور والموسيقى والمخرج ، فيتعاونون على تأليف ذلك الكتاب الفنى فى صورته الجديدة .

المعلم يقدم المادة العلمية ، وكاتب « السناريو » يصوغها قصة ، والمخرج يرتب ماتقتضيه من مناظر ، والممثل يعبر عنها فى حركات وكلمات ، والموسيقى والمصور يزفان القصة بما يلائمها من الصور والألوان والأنغام ! ...

وفى ظل تلك الألفة بين القائمين على تأليف « كتاب المستقبل » يتوارى ظل المؤلف الفرد ، والمعلم الفرد ، كما يتوارى سائر المقومات الفردية التى كانت تسيطر على العمل الواحد ، وبذلك يصبح التأليف عملا جماعياً لابد أن تتساند فيه ألوان شتى من الكفايات والمهارات ! ...

ومتى تحول الكتاب القديم « فلما سينمائياً » فلزام أن يتحول كذلك أسلوب المعالجة فى التأليف ، إذ يخضع أتم الخضوع لما

يمليه الفلم من مطالب فنية بحتة ... فهذا الفلم قوامه الصورة والحركة والإشارة والإيحاء ، ومن شرائطه الاقتضاب فى الحوار ، ففى تتابع المرئيات غنية عن الإسهاب فى الوصف ، وفى إظهار النتائج إرشاد لا يفتقر إلى الإخبار والتعريف !...

ولن يكون «الكتاب الفلمى» — أو «الكتاب الفلم» — وقفاً على المعاهد ودور التثقيف ، فإن أسلوبه الجديد فى معالجة التآليف ، ومنحاه الشائق الكفيل بالتسلية والترفيه ، جدير أن يمهد له إقبال الناس أجمعين ، وليس بمستنكر على الأجيال القادمة أن يكون فى كل بيت ركن للعرض السينمائى ، وأن يتوافر للأسرة من الأفلام ما ينقل إليها دقائق المعارف والعلوم ! ...

وبديه أن «كتاب المستقبل» فى صورته الفلمية لن يكون مقصوراً على الكتاب العلمى المدرسى ، ولكنه سيكون مظهراً شاملا لألوان النشاط الثقافى فى مختلف نواحيه من أدب وفن .
وإذن يشهد العالم انقلابا عجيباً فى وسائل التعبير عن الخوالج والأفكار والعواطف ، فكل ماهو متصل بهذه الوسائل فى أسلوبها المألوف ، لابد أن تنسخ «السينما» آيته ، وأن تتخذ أسلوبا جديداً بأدواتها الفنية المستحدثة !...

ستكون القصيدة من الشعر ممثلة للأعين فى مناظر تتعاون

فيها الألوان والألحان والصور ، لكى تعبر عن خيال الشاعر فى مظهر أخاذ ! ...

ولن يكون القاص يومئذ إلا « مورد فكرة » يلقى بها رءوس موضوعات ، وربما أستعين به فى صوغ « السناريو » ، ونسق الحوار ! ...

ومهما يكن من أمر ، فإن البيان الكتابى - فى بلاغته الراهنة - سينكمش فى « فلم المستقبل » وسيحل محله البيان السينمائى فى التعبير عن المشاعر بالإضاءة والألوان والألحان .

ما حاجة « الفـــلم » إلى تلك الأوصاف المبسوطة فى القصص المكتوب ، وإن هذا « الفلم » ليستطيع فى لمحات خواطف — من الصور والشخصيات — أن يستكمل كل ما يقتضيه المقام من تفصيل وبيان ؟ ...

وما حاجة « الفلم » إلى تلك التحليلات النفسية التى يحاول بها المؤلف أن يكشف عن شخصيات قصته ، على حين أن « الفلم » يريك جليّة الأمر فى مناظر وأحداث ؟...

لاريب فى أن الحيل السينمائية ، وتطور آلاتها الفنية ، وافتنان وسائل الإخراج فيها ، سيكون لها أبلغ الأثر فى اتخاذ أسلوب من التعبير فيه الجدة والطرافة والابداع !...

وما أظن الصحافة إلا أنها — فى جميع مقوماتها من أخبار ومقالات واستطلاعات — ستتحول هى الأخرى أفلاما تذيعها دور الإذاعة بواسطة « التليفزيون » !...

فسيعرف مواطن الغد أنباء الدنيا وقت حدوثها لحظة بعد لحظة ينقلها إليه هذا « التليفزيون » بواسطة جهاز الاستقبال ، فى داره أو فى الميادين العامة ، وأكاد أقول بواسطة لعبة سحرية ، يحملها معه فى جيبه ، أو يلفها حول معصمه ، فلا يلبث أن يشهد زيارة إبان حدوثها ، أو مؤتمراً حين انعقاده ، أو حرباً أثناء اشتعالها إن كان فى الغد حروب !...

هذا « التليفزيون السينمائى » هو الذى أحسبه يرث الصحافة فى مظهرها الحاضر ، فتقوم عليه صحافة الغد ، والصحفى الناجح يومئذ لن ينجح ببراعة قلمه ، فستدول دولة القلم ، ولكن ينجح بما يحمل من الآلة اللاقطة ، وبما يكون له من فطنة وألمعية فى فن التصوير والتسجيل !...

وكذلك تتحول أبواب الصحف المتعارفة ، فإذا هى على اللوح الفضى موضوعات عمادها الصورة والإضاءة والموسيقى المعبرة ، وكذلك الشأن فى « المقال » فسيكون « فكرة » يضطلع كاتب « السيناريو » والمخرج معا بإبرازها على نحو يضمن لها سرعة الإفهام والتأثير !...

ولن تشذ الألحان الموسيقية عن هذا النطاق المضروب ، فستكون هى الأخرى فى طاعة اللوح الفضى المتألق ! ... وقد شرعت « السينما » فى عهدنا الحاضر تجلو بعض « السيمفونيات » فى معرض من المشاهد والأضواء ، فأتاحت مزاجا من المتعة والبهجة للأنظار والأسماع على السواء ، وكان لها فى النفوس روعة وبلاغ ، فما ظنك بما ينتظر للفن السينمائى من رقى ، وما يرتقب لآلاته من تطور ؟ ... ألا يبعثك هذا على أن تتمثل القطعة الموسيقية وقد أخرجتها «السينما» الجديدة فى مظهر شائق قوامه التنوع والافتنان . والراجح عندى أن المصور فى المستقبل لن تكون مهمته تصوير ألواحه الخاصة ، بقدر ماتكون مهمته أن يعين على إخراج صورة للطبيعة المنظورة أو المشاهد الحية فى وضع فنى جديد . فسيكون شأن المصور كشأن المؤلف فى اختفاء شخصيته المستقلة ، فلا ينفرد بالفضل فى عمل « اللوح الفنى » ولكن يشارك الزُّملة — التى تعمل متكاملة متكافلة — على إبراز اللوح الفنى الحى ، ذلك الذى هو أقرب شبهاً إلى تلك الألواح التى نشهدها أحياناً فى الحفلات ، أقصد **Tableaux Vwanto** فى هذه الألواح ينسق الفنان مشاهد صامتة من الأشخاص فى أوضاع ثابتة ، فتبدو كأنها ألواح فنية ، وإنها لكذلك فى الحق لا تعوزها الحياة ! ...

أما المأسوف عليه — فى هذا الانقلاب السينمائى العارم — فهو المسرح المألوف ، فإنه لمقضى عليـــه لا محالة ، وليس عجباً أن يلقى هذا المصير وهو منذ اليوم تنهكه الشيخوخة . حتى لأقول إنه يعالج النزع ، ولا ينجيه من غمراته ما نصطنعه له من محاولات نريد بها استبقاءه حيناً من الدهر ...

وغاية القول أنى موقن بأن « السينما » وربيبها « التليفزيون » هما اللذان يؤول إليهما ذلك التراث الإنسانى الضخم من علم وأدب وفن ، وهما اللذان ينتهى إليهما الإشراف التام على ثقافة الغد علمية كانت أو أدبية أو فنية ، فيوجهانها فى منحى جديد ، يوائم ملابسات الحياة فى تطورها الدائب الموصول ما بقيت حياة ! ...

اعترافاتى

اعترافى الذى يراد منى أن أجرى به القلم الساعة ، هو فى حقيقة أمره أن أفتح ذلك الباب المغلق الصدىء ، بعد أن أوصدته دهراً فى أوجه الناس .

إنه باب تلك الدار العتيقة التى أختزن فيها عصارة حياتى حلوة أو مريرة ، وأدعها ليد الأحداث وتصاريف الزمن ، تتعاقب عليها بأشتات المصاير والأقدار .

وليس لاعترافى معنى إلا أن أدعو الناس على اختلافهم — أقربين وأبعدين — إلى أن يرتادوا هذه الدار ، وأن يطوفوا بما فيها من أبهاء وحجرات ، فيتذوقوا من تلك العصارة الحية ما طاب لهم أن يتذوقوا ، ليس عليهم من سبيل ! ...

وقد يجد بعض الناس لهذه العصارة التى يتذوقونها لذع النار ، بيد أنهم يتجرعونها فى صبر واحتمال ، قريرة أعينهم بأنهم قد استجلوا شيئاً مستوراً عنهم ، لم يكن بالمستباح ! ...

وإن الناس ليصادفهم فى تلك الحجرات والأبهاء ما يرتاحون إليه تارة ، وما يستنكرونه تارة ، ولكنهم جميعاً يصدرون عن الدار ، فى غير ندم على ما أنفقوا من وقت ، ولا ضجر مما قضوا من زيارة وطواف !...

ومن أين لهم الندم والضجر ، وقد أثلجوا بهذا الصنيع صدورهم ، التى تتقد فيها جذوة التطلع والتعرف والاستشراف ؟...

والناس إذا تطلعوا إلى الاعترافات تطلع اللاهف المشغوف واستروحوا منها نفحة الأنس والرضا ، فإن مردّ ذلك إلى رغبة هؤلاء الناس فى أن يجدوا من عيوب المعترف ونقائصه ، ما يملأ نفوسهم طمأنينة ، وما يخفف عنهم ثقل ما يشعرون به من النقائص والعيوب !...

ولربما تصيد الناس ما يكشفه المعترف من أمر نفسه ، فإذا هم يجسمون خطره ، عامدين إلى تهويل وترويع واستنكار ، يهدفون بذلك إلى التصغير من آثامهم بجانب ذلك الإثم العظيم ، حتى يكونوا بالقياس إلى ذلك الخاطىء المعترف أطهاراً أبرياء !...

ما من قارىء فرغ من تصفح اعترافات غيره ، إلا وقد كبرت نفسه فى عينه ، وواتاه زهو واعتداد . فطوى صفحة المعترف وهو يقبل يده ظهراً لبطن ، حامداً الله على أنه عافاه مما ابتلى به

كثيراً من خلقه ، ولو أنصف ذلك المتفرج المزهو لحمد الله على أن جوارحه لا تنطق بما قارف هو من جرائر وآثام جسام !...

على أن المعترف نفسه إنما يكشف عن دخيلته ، ويجلو ما استتر من أمره ، تحدوه على ذلك الرغبة فى التخلص من التبعة فيما كان منه ، والتماس المعاذير له فيما أحاط به من ملابسات ، حتى يكون ذلك سبيلا إلى أن تنزاح عن كاهله عقوبة الخطيئة ، وجزاء الإثم ، وفى هذا الصدد يتناقل الناس تلك الكلمة المأثورة :

« من أقر بذنبه ، غفر له ربه »

والاعتراف على هذا الأساس ، يحمل معنى الإقلاع عن الشر والكف عن المآثم ، ويعد طليعة الاستقامة فى السلوك ، والنزوع إلى مكارم الأخلاق ، وذلك هو جوهر التوبة الخالصة النصوح ، تلك التوبة التى تتفتح لها فى السماء أبواب القبول .

والموازين الأخلاقية تحمد فى الاعتراف أنه دليل شجاعة النفس ، وقوة الإرادة ، وبرهان الرجوع إلى الحق ، لا التمادى فى الباطل ولا الإصرار عليه... وأنه كذلك محاسبة المرء نفسه بنفسه على ما كان منها ، قبل أن يرميها أحد بالتهمة ، ويأخذها بالعقاب ...

والحق أن للاعتراف باعثاً نفسياً سيكولوجيا ، فوق تلك البواعث التى ترجع إلى نظام المجتمع ، أو إلى وحى الدين ، أو إلى معايير الأخلاق .

فى النفس البشرية خاصة التطلع إلى أسرار الناس ، وفيها كذلك خاصة الإفضاء إلى الناس بما تنطوى عليه من سر ! ...

أنت مشغوف بأن تتعرف وتستجلى ، وأنت كذلك مشغوف بأن تبث غيرك ذات نفسك ، فى غير إرغام ولا إلزام ! ...

المعترف تؤوده خطاياه ، فهـــو بالانطواء عليها ضائق مكروب ! ...

السر فى حنايا الصدر حشرة قارضة ، فإذا بقيت الحشرة رهينة المحبس ، ولم تجد لها من متنفس ، عمدت إلى الصدر تأكله ، مشت إلى القلب تعيث فيه فلا تدعه إلا حطاما ! ...

إذا بسط المرء اعترافه ، فكأنما هو يبيح لتلك الحشرة القارضة أن تبارح صدره طليقة تسعى ، واجدة طعامها الطيب فى صدور ذوى التطفل والفضول ، أولئـــك الذين تلتهب قلوبهم كلفا بالكشف عن كوامن الأسرار وراء الأستار ! ...

ولو تدبرت كنه المعترف ، لعلمت أنه ليس إلا إنساناً مثلك ، تتقاذف به الأقدار كما تتقاذف بك ، استشعر منك أنك تتسور جداره ، وتستشف أسراره ، فأدلى إليك حبلا تتعلق به ، وما هى إلا أن استقبلك بزيف من الترحيب ، وأخذ بيدك موهما إياك أنه مطلعـــك على ذخائر داره ، وإذا هو مطوّح بك فى أنفاق

وسراديب ، لا تلبث أنقاضها أن تنهال عليك ، ولا يلبث غبارها أن يخنق منك الأنفاس !...

ويظل بك المعترف الخداع مترددا بين هذه المتاهات الخربة الموحشة ، حتى تؤثر الفرار ببدنك ظالعاً ، مشجوج الرأس ، محطوم الأنف ، كسير الفؤاد .

لا تذهبن بك الغفلة إلى أن المعترف يفتح لعينيك مغاليق نفسه، مريداً بذلك أن يطاعمك البهجة، ويساقيك الأنس والمتاع، فما هو إلا ثائر لنفسه ، غاضب لكرامته ، يدس فى تلافيف اعترافه سموم الحقد والانتقام ! ...

إنه صريع خطيئة ، وإنه ليظهرك على خطيئته جهرة ، وإنه ليدرك منك أنك فى خفيّة نفسك تجد برد الراحة ولذة الطمأنينة فيما يعترف به ، فيأبى إلا أن يشوب متعتك ، ويفسد عليك أمنيتك ، فيسوق إليك اعترافاته البغيضة ، يتكاثر فيها التزييف والتمويه ، وتتعقد فيها المداورات والأخاديع ! ...

ولعلك سائلى :

أى سم ينفثه المعترف فى طى اعترافه ؟ ... وعلى أى نحو يكون ثأره وانتقامه ؟...

فاعلم — عافاك الله — أن المعترف يوقن اليقين كله أنك

لست أهون منه خطأ ، ولا أطهر منه ذيلا ، وأنك لست إلا مثله : جعبة آثام وشرور ، تنسدل عليها حلة من زينة وزخرف ، فهذا المعترف بما يجلو عليك من طوايا خطاياه ، إنما يبتعث فى سريرتك رواسب آثامك ، ويضرم النـــار فيما همد من ماضيك ، فإذا أنت محوط بأغوال سيئاتك ، تلهبك سياطها الحامية ... وذلك هو اللباب فيما يبغيه المعترف لك ، تشفياً منك ونقمة !...

والآن وقد قصصت عليك « اعترافى » فى حقيقة الاعتراف ، أرجو أن أكون قد بسطته فى خلوص يسلم به من شوائب المعترفين . فإذا أقررتنى على ذلك ، فما إخال إلا أنك تعفينى فى أن أفضى إليك باعترافات تسرى فيها الشوائب من كل جانب !...

الغادة الطائرة ... رحلة صيف !

يمضى بك القطار من « جنيف » فى الساعة السابعة من الصباح ، فلا يشرف بك على « فلمز » إلا فى مثل هذه الساعة من المساء ... وإذن فأنت فى هذه الرحلة تستنفد نهارك الطويل كله ، على حين أن الطائرة إذا نهضت بك من « القاهرة » فى الساعة السابعة مساء ، وصلت بك إلى « جنيف » فى الساعة السادسة من صباح غدك ... بيد أن تلك الساعات المديدة التى تقضيها فى القطار بين « جنيف » و « فلمز » لا تروعك ، ولا تبعث فى نفسك ضيقاً ولا ملالة ، فالسفر فى القطارات السويسرية مأنوس ، تهش له النفوس ! ...

أنت فى رحلة طيبة ، تحتويك مركبة نظيفة ، وقد اطمأن بك الجلوس على مقعد وثير ، عيناك تشهدان مناظر ممتعة فى كل لحظة تمر بك ، والهواء دونك رخاء لا غبار عليه ، والقطار المجدّ فى سيره لا ينفث حولك من الدخان ما يعكر صفو الأنفاس ، وليس ثمة من ضوضاء ولا جلبة ، فهذه مثابة أمن وطمأنينة ،

لا شائبة فيها من قلق !...

الطريق بين « جنيف » و « فلمز » شطران : الشطر الأول من « جنيف » إلى « بريج » ، تتوالى عليك أثناءه ربوع سويسرية مألوفة بين الوديان ؛ فهذه بساتين فياحة ، وكروم حالية ، إلى مراتع أبقار ، وغابات تتكاثف ، وأنهار تجرى ... وهنالك المغانى التى تسمى « الشاليهات » متميزة بطابعها الخاص ... والشطر الآخر من الطريق بين « بريج » و « فلمز » تقضى أكثره فى القطار ، وأقله فى حافلة من حافلات الضواحى ...

أما قطار « بريج » فإنه قطار صغير ، أعد لكى يجوب شعاب الجبال ، فهو عجول إذا اطمأن به الطريق ، وقلما يكون ، وهو رزين محاذر إذا رافقته المهاوى أو علت به المشارف ، فتراه يتراقى إلى الجبل ، ويدور حوله ، متشـــدداً فى خطوه ، لا عن خشية واضطراب ، بل عن ثقة واعتداد ، وكأنما هو يستأنى بك ؛ لكى يتيح لك أن تملأ عينيك من مجالى الطبيعة الرائعة حواليك ، فتكاد تحس بأن هذا القطار ليس بآلة صماء وإنما هو رفيق كريم ييسر لك أسباب المتعة والإيناس !...

المرحلة بين « بريج » و « فلمز » هى بيت القصيد فى تلك الرحلة الشائقة ... إنك لتلزم نافذتك من القطار ، لتطل منها على الطريق ،

تستقبل الروائع من مشاهد الجبال ، وإنك لتمكث فى جلستك إلى نافذتك ، تنسى طعامك وشرابك ، بل تنسى أن تلتمس لجفنيك الغفوة التى تعودت أن تلتمسها فى أسفارك . فأنت هنا لا تبغى بالتطلع بديلا ، بل تخشى أن تند عن عينك فائتة ، فتظل مسحور العين بما ترى مهتاج النفس بما تتملى ! ...

آنا تجدك قد سموت على سفح الجبل ، وطوراً تراك قد انحدرت عنه ، وحينا تحس بأنك على صعيد الأرض تمضى فى طريق مستقيم ! ...

وربما ألفيت طريق السيارات تصحبك ، عن كثب منك ، وسرعان ما يختفى عنك ، كأنما قد غار فى بطون الجبال ، وإذا هو بعد حين يلوح لك ، على مبعدة ، وقد استطال والتوى ، ملتمعاً فى وهج الضوء ، وأشباح السيارات تتخايل عليه منطلقة فى جرأة واقتحام ! ...

وثمة فى قاع الوادى السحيق يتراءى لك النهر ، كأنه سلك من فضة يتألق ، وهو يعابثك ببريقه نائياً عنك ، دونه مهاو سحيقة ، تحف بها مزالق الصخور ، وغابات تتشبث أشجارها بأكناف الجبال ! ...

وبينما أنت مأخوذ اللب بما تشهد ، إذ تداعب سمعك وسوسة

موصولة تشتد وتتوضح ، وإذا هي خرير النهر ، دنا منك بعد نأى ، وواصلك بعد جفوة ، وتخطى إليك العقبات جميعاً ، وغدا إلى جانبك يحييك فى إقبال وتودد ، ثم لا يفتأ يساير قطارك الصغير ، وهو ضاحك متهلل ، على شفتيه رغو فائر وثاب ! ...

وإن النهر ليصافيك وتصافيه ، ويألفك وتألفه ، حتى ليشغلك عن مشهد تلك الفنادق المعلقة غير بعيد من رءوس الجبال ، وربما حانت منك التفاتة حينئذ إلى « بحار الثلوج » المتحجرة بلونها الزمردى المتوهج ، تزهو بها تلك المناطق القطبية الرفيعة ، فما هى إلا أن تذكر صاحبك النهر ، فتدور بعينيك منقباً عنه ، وترهف سمعك له ، تتصيد بعض حديثه ، فيروعك أنه قد توارى عنك فى ملاوى الجبال بلا وداع ، وكأنما عز عليه أن تستهويك « بحار الثلوج » دونه ، وأن تصدك عنه ، فيأبى إلا أن يحرمك صحبته التى حمدتها له فى بعض الطريق .

ويتهادى بك القطار فى سكينة ، متسرباً بك من نفق إلى نفق ، وأنت فيما بين ذلك تطالعك ألوان شتى من الطبيعة الحية ، وترى القطار وقد أخذ يعبر بين جبلين على قنطرة ضخمة عالية ، طبقاتها مبنية بعضها فوق بعض ، ولا يكاد القطار يفرغ من عبور القنطرة حتى تلمح السلك الفضى قد التمع فى بطن الوادى ، يبعث إليك

بتحية رقيقة ، وكأنه يقول لك : طب نفساً بى ، فإنى مواصلك بعد انقطاع .

وانتهى بنا القطار إلى محطة الوصول ، فغادرناه نؤم حافلة من حافلات المناطق الجبلية تغص بالمسافرين، أبلغتنا بعد حين مشارف « فلمز » ، فبــــدت لنا على مقربة ، تعتنقها الغابات الكثة ، ومن خلفها هامات الجبال تطل بوجه أرمد عليه شموخ ! ...

ها هى ذى « فلمز » ... غادة مشيقة حسناء ، تتجلى فى لبوس البحر ، وهى تقفز فى الهواء قفزة جبارة ، وإنها لتبسط ذراعيها وساقيها ترمى بها إلى الوراء ، ناهدة الصدر ، مشرئبة العنق ، عالية الرأس ، تستقبل مسرى الهــــواء ، ومطلع الضياء ، فتعب من صفوهما رحيق الحيوية والإشراق ! ...

لكأنها وهى متجلية على هـــذا الوضع ، معلقة بين السماء والأرض ، تناجى ماء البحيرة الساجى ، وتزف نفسها إليه ، تريد أن تلقى عنده جسدها البض ، ليتلقاها على صدره الدافىء الحنون، فإذا هما يستغرقان فى سكرة من سكرات الأحلام ! ...

تلك هى الصورة التى تطالعك بها لافتات السياحة ، وتقدمها لك النشرات والبطاقات ، رامزة بها إلى « فلمز » ... وما أصدقه من رمز لهذه المدينة الساحرة ، فمـا هى إلا غادة رائعة الفتنة ،

تتجلى فيها فورة الحيوية الدافقة وتكمن فيها متعة النفس الطلاعة في معرض طبيعي أنيس ، لا كلفة فيه ولا تصنع !...

أما وقد استقر بك المقام في «فلمز» ، فهل تراك قانعاً بالجلوس في شرفة حجرتك ، ترمى بنظرك من حولك ، لتطالعك الجبال والغابات ، ومن فوقها سماء صاحية تعابث صحوها سحائب رقاق؟... هيهات لك أن تقنع بالركون إلى الشرفة ، وهذه الطبيعة البهيجة أمامك ، تذكى شوقك ، وتلهب فضولك ، لاستقصاء تلك المفاتن التي تنطوى عليها الغابات والأحراج ...

إنك لتنهض عجلان دافعاً بخطاك إلى الطريق ، فإذا الغابة تحتويك ، فتضم حناياها عليك ... وأعنى بالغابة « فلمز » نفسها ، فما هي إلا غابة عظيمة ، أو مجتمع غابات متشابكة ، وما هذه الفنادق والمغانى والأندية والحوانيت إلا أجزاء من تلك الغابة الساحرة ، تحسبها نبتت مع زرعها ، ونمت مع أشجارها ، فهى منها كما تكون الأعضاء في جسد سوىّ !...

تجوس خلال هذه الغابة أول ما تجوس ، فتحس لها بادئاً بشيء من رهبة واستيحاش ، إذ ترى الأشجار تتزاحم ، فارعة الغصون والأفانين ، كأنها تحجب عنك صفحة السماء ... ولكنك لا تلبث بعد جولة قصيرة أن تذهب عنك الوحشة ، إذ تشهد

الطريق عامرة بالقصاد ، فى غدو ورواح ، على وجوههم سيماء التفاؤل والبشر ، أولئك هم طلاب الدعة والجمام ، فزعوا إلى « فلمز » فى إجازاتهم لتفىء عليهم متعة النفس وراحة البدن ؛ وهم على ثقة أن المدينة ضمينة لهم بما رغبوا فيه ؛ فلتكن مثلهم طلقاً مروحا ؛ تنعم بطيب الحياة !...

وفى أثناء تجوالك بين خمائل « فلمز » ، تسترعى نظرك كتل من صخور الجبل عليها جهامة ، تراها قابعة هنا وهناك ، ناتئة بين المروج الخضر ، فتحاذر أن تدنو من هذه الصخور ، خشية أن تتزعزع فى مكانها فتودى بك ... وإنك لتسأل أهل الذكر : ما خطب تلك الكتل التى تقوم على مد الطريق ؟... فيجيبونك بأنها أثر من آثار الماضى البعيد ، إذ انهارت من حول المدينة بعض جوانب الجبل ، فكانت كارثة دمرتها شر تدمير ... ولما استعادت المدينة على الأيام حياتها ونماءها ، بقيت هذه الصخور مكانها لا تتزحزح ، وكأنما هى سطور يخط بها القدر تاريخ الكارثة على أرض ذلك البلد الصبور !...

وتسرع الخطا ، محاولا أن تنسى مآسى الطبيعة الفاجعة ، مستقبلا برئتيك لطائف الأنسام المضمخة بشذى الأزهار ، فتحس بأن لك فى نزهتك رفيقاً يؤنسك ، وما ذلك الرفيق إلا قرقرة

لا تكاد تغيب عن سمعك حتى تعود إليه رنانة صافية ، ويستبين لك أنك تجوز فى سيرك بين وقت ووقت بحياض ، صنعت من جذوع الشجر ، تتلقى ماءها من صنابير لا ينقطع لها ورد ، وإن هذه الحياض لتظل زاخرة بمائها تبعث بما يفيض عنها إلى قنوات متعرجة ، وإن هذا الماء الفائض ليتسلل فى أنحاء الغابة هادئاً رقراقا خفياً كما تتسلل الأسرار من قلوب المحبين .

على هذه الحياض يتلاقى الظماء من رواد الغابة ، ليبلوا صداهم بما يفاض عليها من ماء فرات ، وحول هذه الحياض يتجمع الرفاق ، مفترشين العشب ، ليصيبوا ما شاءوا أن يصيبوا من طعام .

ويطيب لك أن تضرب فى مناكب ذلك البلد ، تجوب طرقاته ، وتمر بحوانيته ، وتزور ما هنالك من فنادق ومشارب وأندية ... وتختار لجلوسك بعد طول الطواف مشرباً له شرفة مرتفعة فى الميدان : قلب المدينة النابض ، فمن هذا الميدان تتشعب الطرق إلى مختلف النواحى والجهات . ومن التجوز أن أقول « الميدان » ، فإن رقعته لا تزيد على بهو من الأبهاء فى قصور السراة الغابرين ، وإذا قلت إن هذا الميدان « قلب المدينة النابض » فإنما أعنى قلباً ساذجا ، من قلوب العذارى ، أو قلوب الأطفال ! ...

وفى مجلسك من شرفة المشرب ، ترى تجاهك مبنى يضم مكتب البريد والبرق ، ومحطة الحافلات ، فهى التى توصلك إلى « فلمز » وتعود بك منها ، وأما القطار فلا وجود له فى تلك المنطقة الساجية ... وهنا وهنالك تشهد بعض حوانيت الزينة والتصوير والفاكهة ! ...

وقد تسأل متعجباً قلقاً : أين المصرف ؟ ... أما بال نظرك لم يقع بعد على مبنى لهذا « الخطير العظيم » ! ؟ ... فتأخذ عينك وجهة صغيرة يحتجب زجاجها خلف ستارة من نسيج مخرّم ، تحاول على استحياء أن تستخلص نفسها مما يزحمها من أبنية ، لتستعلن لك ، مرحبة بك ، فتقرأ على جبينها باللغة الألمانية مايرد إليك طمأنينتك ... أنت هنا أيها المصرف المنشود ... أنت هنا ياصديقى قانع بهذا المثوى المتواضع الذى لا تزيد مساحته على حجرة بواب ... لقد ضنوا عليك أن تستقل بمبنى خاص ، فأشركوك فى مبنى واحد مع بائعة أدوات الزينة ، حتى إن المرء ليشتبه عليه أمرك ، فيحسبك مستودعا ، تخزن فيه البائعة ما فضل من السلع عن حاجة البيع ! ...

وبينما أنا فى ملتطم هذه الخواطر ، إذ قدمت نادلة المشرب تضع أمامى ما طلبته من شراب ، فسألتها عن المصرف وشأنه فى ذلك

البلد ، فذكرت لى فيما ذكرت — والابتسامة على محياها ترتسم — أنه لا يفتح لطلاب المال أبوابه — تقصد : بابه الصغير ! . — إلا أربعة أيام فى الأسبوع ، بين الساعة الثالثة بعد الظهر والساعة السادسة . فقلت لها فى هدوء يخفى وراءه الدهشة :

يبدو أن المال ليس بذى شأن فى « فلمز » ! ...

فقالت وقد ضاءت ابتسامتها :

بل إن له شأنا أى شأن ... ولكن مصرفنا كبلدتنا ... يفى بكل المطالب ، على صغره وتواضعه ... هو صورة صادقة من « فلمز » ! ...

وزايلت المشرب ، قاصداً « بيت المال » العجيب ، فقد ثار بى فضولى إليه ، وطرقت بابه من فورى أستبدل ببعض النقود الأجنبية نقوداً سويسرية ! ... فوجدتنى حيال منضدة أو ما يشبه المنضدة ، ومن ورائها موظف يهش لك ، ويرحب بك ، ويجيبك فى يسر إلى مطلبك . لا ترى ثمة أسواراً ونوافذ عليها قضبان من حديد ونحاس ، ولا صفوفا متراصة بينها هرج ومرج ، يأخذ بعضها بخناق بعض ... لقد أصابت النادلة فى قولها :

إن المصرف صورة تمثل « فلمز » أصدق تمثيل ، فيه ما فيها من

رشاقة وهدوء ، ومن سذاجة وتواضع ، ومن ترفع عن الصنعة والزخرف ! ...

وترجع إلى مجلسك من المشرب ، ترمى ببصرك من شرفته الرفيعة ، لتتفرج بما تشهد ، وأنت فى ساعة الأصيل ، والجو ما برح دافئاً فيه أثارة من حرارة الشمس ، فلا غرو أن ترى رواد « فلمز » يذرعون الميدان فى جيئة وذهوب ، وأكثرهم متخففون من ثيابهم ، حتى لتخالهم من رواد شواطىء الاستحمام ! ...

لا مبالغة فى قولك إذا وصفت « فلمز » بأنها بلد العرى ، ولكنه العرى المهذب أو المحتشم ، فإن السراويلات القصار المنحسرة إلى السيقان ، هى الزى المألوف فى ساعات الصحو والدفء ، ومن فوق هذه السراويلات قمصان طريفة الألوان زاهية الأصباغ ، وليس فى هذه القمصان ولا تلك السراويلات معنى الكساء ، فإن ما تكشفان عنه ، أكثر مما تسترانه ، وما تنمان عليه ، أخطر مما تسرانه ! ...

لكأنك فى مجلسك من الشرفة الرفيعة ، وهذا الخلق يمر تحت ناظريك ، تشهد حفلة من حفلات العرض ، إلا أنه ليس بعرض عسكرى ، قوامه الصفوف المتراصة التى تضرب الأرض بخطواتها الراتبة الثقال ، ولكنه عرض لأطياف بشرية

خرجت تجتلى محاسن الطبيعة ، فى مظهر كله بشاشـــة ولطف وائتناس !...

أتراك تسأل عن الشرطى فى هذا البلد : أين يكون؟ ... سيعز عليك أن تصادفه ، ولكنك ملاقيه بعد طول البحث والتقصى ... ستجده أكثر ما تجده فى ساعات الأصيل من يوم الأحد ، يوهم نفسه ، ويوهم الناس معه ، أنه قدم إلى الميدان ، ليضبط الأمن ، وينظم حركة المرور ، ولكن الأمن فى غنية عن أمره ونهيه ، وقافلة المرور تسير فى غير افتقار إلى هديه ، لأن كل شىء فى « فلمز » يجرى وفق منهج طبيعى لا كلفة فيه ولا تعقيد ، منهج التعاون الصادق ، والبصيرة الصافية !...

إلا أن الشرطى مأمور بالهيمنة على الأمن ، وإن لم يكن ثمة ما يخل بالأمن ، مكلف أن يشرف على حركة المرور ، وإن كان المرور منظماً بدونه ، فهو يبدو وسط الميدان متبختراً فى حلة خضراء مزركشة بأنواع من الزينة والوشى ، يتلقى أفواج الناس بوجه ريّان مورّد تكسوه طلاقة ، يبادل التحية من يبادل من السابلة ، ويناقل بعضهم الحديث فى لهجة لا تخلو من عجب واختيال ... هو على الرغم من أوسمته الزاهية وشاراته المقصبة ، وسيفه الصقيل ، يشعر أنه مواطن كسائر المواطنين فى هذا البلد الأنيس ، نيط به

واجب مقدس ، عليه أن ينهض به فى أمانة وإخلاص !...

أتراك تسأل عن الصيدلية فى « فلمز » ؟ ... سيدلونك على مكانها بعد لأى . فإذا طرقت المكان ، فدفعت إلى صاحبه تذكرة الطبيب ، لم يعتم أن يردها عليك فى ابتسام ، وهو يسوق اعتذاره بقوله :

ليست هـــذه صيدلية يا سيدى . . . هذا مخزن عطور وعقاقير ! ...

— هل لك أن تدلنى على صيدلية فى هذا البلد ؟...

— ليس فى « فلمز » صيدلية ...

وأنت فقد تكون ممن أفاء الله عليهم نعمة الصحة ، ولم تستوثق صلتهم بالطب والدواء ، فلا تجد فى هذا القول ما يثير عجبك ... ولكن ما أحقنى أنا بأن أحار وأدهش ، إذ أجد مدينة بأكملها خلاء من صيدلية !... فأنا الذى أمضيت فى هذه الدنيا أكثر من نصف قرن ، أكاد أعيش بمنتجات هذه المتاجر الكريمة التى تلقب بالصيدليات ، ولا أحيا إلا وفق ما يرسمه لى الغطاريف العظام الذين يلقبون بالأطباء !...

من حق إذن أن أعجب وأن أدهش حين أسمع صاحب مخزن العطور والعقاقير يقول لى :

ليست « فلمز » فى حاجة إلى صيدليات ولا إلى أطباء !...

فأقول له مختلج الصوت :

وماذا يصنع المرضى هنا ؟...

فيبادرنى بقوله :

ومن قال لك ياسيدى إن فى هذا البلد مرضى ؟...

فأحدق فيه وقتاً أراجع قوله ، وما هى إلا أن أجدنى قد طويت تذكرة الطبيب فى يدى ، وألقيت بها فى جيبى ، ثم التمست وجه الطريق .

هذه « فلمز » تقفر من الصيدليات ، وهى فى عرفنا نحن من ضرورات الحياة ، على حين أن البلدة تعمر بمتاجر العطور وأدوات التطريف ، وألوان الزينة ، كما تزخر بأبهاء الحلاقة والتجميل ، وتلك فى عرفنا نحن من ترف العيش وكماليات الحياة ! ... ألا يبدو هذا من عجائب المفارقات ؟ ... الضرورات يعدها الإنسان المتحضر مما يستغنى عنه ، والكماليات تعد من اللزوميات التى ليس لأحد عنها غناء ! ... أحقاً فى الأمر مفارقة أو تناقض ؟... لو أنك أعملت الفكر ملياً لبان لك أن الإنسان — منذ كان — يضع التجميل فى المقام الأول من حياته ، وإنه ليجد التزين والتطرية غريزة تضارع فى سلطانها عملية غريزة الطعام والشراب والدواء...

تلك حقيقة من حقائق الإنسان ، لا يرقى إليها الجحود والنكران !.

وإنك وأنت فى « فلمز » تجوب نواحيها ، وتخالط أهليها ، لتعجب لهذه الرطانة الغريبة التى يتفاهم بها الناس هنالك ، وستحاول أن تسبر غور هـــذه الرطانة ، وأن تعزوها إلى إحدى اللغات المعروفة ، مهتديا بمـا ألفتَ أن تسمع فى جولاتك من مختلف اللهجات ، ولكن فطنتك لا تسعفك بشىء تطمئن به ، وتسكن إليه ، فلا تملك إلا أن تسأل أهل الذكر ، ليعينوك على حل هذا اللغز العصى ، فتعلم من حديثهم أن بلدة « فلمز » تتبع منطقة « الجريزون » ، ولهذه المنطقة لغـة خاصة تسمى « الرومانش » ، وهى نابعة من اللاتينية ، ترفدها الألمـانية والإيطالية . وقد كان القوم فى سوالف العهود لا يعدونها إلا لهجة ليست لها مقومات اللغة الحقة . ولكن أهل تلك المنطقة أمدوا لغتهم بأسباب البقاء والنمـاء ، حتى برزت وتفوقت وأصبحت لها دولة وسلطان ، فاعترفت بها الحكومة ، وأضافتها إلى لغاتها الرسمية ، وكذلك احتلت « الرومانش » مكاناً مكيناً بين اللغات الأصيلة التى تتكلم بها كثرة الناس فى « سويسرة » وهى الألمـانية والفرنسية والإيطالية .

أصابت « الرومانش » تلك الحظوة ، على الرغم من ضآلتها ، وقلة الناطقين بها ، فهم لا يزيدون على خمسين ألف نسمة ، من

أربعة ملايين يعمرون الأرض السويسرية . والفضل فى حظوة هذه اللغة مرده إلى أن أكثر من مائة وخمسين شاعراً وكاتباً نهضوا بأدب جديد حى ، فى تلك المنطقة المسماة « الجريزون » ، استنبتوه فى أرضها ورووه بما يقطر من أندائها ، وأنشقوه طيب هوائها ، فنما وازدهر ، واجتذب إليه أنظار الإعجاب : إذ كان لتلك المنطقة مرآة مجلوة يستوحى روحها ، ويصور طابعها ، ويسجل لغة أهليها ، فإذا هى لغة تدين لها الدولة ، وتشق لها مكاناً بين الأصائل من اللغات ! ...

والآن وقد واليت جولاتك فى هذه البلدة ، حتى عرفتها وعرفتك ، وأطلت مكوثك فى شرفة المشرب حتى مللتها وملتك... ألا تشعر أن هاتفاً يهمس لك : حسبك ما حولك ، وانشد جديداً مما تحفل به أطراف البلدة من متع ومباهج .

وإذن فأنت ناهض من فورك ، فراجع إلى أهل الذكر ليزودوك بمعلومات طريفة ، ويمدوك بمجموعة من الكراسات والمصورات ، وإذا أنت أمام حشد من أسماء المنازه مختلف الألوان والشكول ، فتقبل على دراستها موازناً بينها فى جد واهتمام ، وما إن يقع اختيارك على ما يلائمك ، حتى تمضى إلى طيتك قرير العين مشبوب الوجدان ! ...

لتكن فاتحة جولاتك إلى منطقة البحيرات ، وإنها لبحيرات ثلاث تربط بينها مسالك متعرجة تعبر الغابات ... هذه خطاك تدفع بك نشيطا فى الطريق الظليل إلى أولى البحيرات : « كوماسى » أجمل مواطن الاستجمام فى تلك البقعة ، فينتهى بك السير إلى مبنى صغير ، حجرة واحدة ، هى محطة المصعد ، حيث يقبع الناظر ، أو « التذكرى » أو بعبارة أوضح : المهيمن على حركة الصعود والهبوط ! ...

أنت لا ريب سائل : أى صعود وأى هبوط ؟... لاتعجب ، فالبحيرة تهبط عن سطح البلدة مائة وخمسين من الأمتار . ليس العجب أن يكون ثمة مصعد ، وإنما العجب أن تكون هذه البحيرة غائرة فى جوف الجبل ، وعهدنا بالبحيرات أن تشق السفوح ، أو تتسنم القمم ! ...

متى تركت حجرة الناظر ، واجهك المصعد على الفور ... إنه علبة ، علبة لا أكثر ولا أقل ... علبة خضراء ناضرة ، كأنما عكست عليها الطبيعة من حولها لونها الأخضر ، فما فى هذه البقعة إلا الخضرة تواجهك أينما أرسلت الطرف . ولا تكاد العلبة تحتويك حتى تحس بها تنزلق هابطة ، وترفع بصرك ناظراً من النافذة ، فإذا أنت حيال مشهد ساحر خلاب . . . إن الغابة

الكثيفة التي تتوشح أشجارها في إصرار يسد دونك السبيل ، لتتسامح اللحظة معك ، وأنت حبيس هذه العلبة الخضراء ، فتبوح لك ببعض أسرارها اللطاف ... إنها لتزيح اللثام رويدا عن وجه ربيبتها الحسناء « كوماسى » ، فهذا المهوى الهابط بك يشق لك الغابة شقاً ، ويباعد بين أشجارها ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، فتبدو لك فرجة تزداد اتساعا كلما أوغلت بك العلبة في الغابة إلى القرار !...

وأخيراً تنطلق من محبس العلبة ، فتجد قبالتك هذه الفاتنة الساحرة ، « كوما » — أوكما يسمونها : « كوماسى » — وقدأبدت لك دفعة واحدة كل روعتها ، فتقف ذاهلا معاق الأنفاس ، لا تملك إلا أن تطوف ببصرك وئيداً في خشوع وإكبار ، تتملى تلك المفاتن التي من الله بها على هذا المكان الفريد !...

قل غير متهيب إن « كوماسى » إحدى العجائب النوادر في سويسرة ، بل قل إنها إحدى العجائب المعدودة في هذا الكون من أقصاه إلى أقصاه !...

إنك لتتمثل بحيرة كانت يوما كسائر البحيرات تنشق عنها هضبة جبلية عالية ، ولكن ساخ الجبل ، فانهوت البحيرة معه إلى قرار سحيق ، ولبثت غائصة في مكانها مع الأيام . فاخضوضرت

من حولها سفوح ، وأورق حيالها شجر ، فاستحالت البقعة فردوساً يبهر العيون !...

ذلك مايواتيك به الخيال فى شأن تلك البحيرة ؛ وأنت تحدق فيها بمجامع النظر ، محاولا أن تستزيد مما حوت من آيات الحسن ؛ فتمضى فى الطريق المرسوم ؛ طريق النزهة لا طريق الاستحمام ، مزمعاً أن تدور حــــول البحيرة دورة يتم بها تعرفك ؛ ويرتوى فضولك ؛ وما هى إلا خطوات حتى تشعر بأنك قد حللت مكاناً أوفر دفئاً من « فلمز » نفسها ؛ وترى الأعشاب وألوان النباتات تكسو البقعة ، وتتفشى فى جوانبها ، حتى يتعذر عليك أن تتبين الأرض الصلبة تحت قدميك ! ...

وإنه ليشق عليك أن تجد للبحيرة شاطئاً رملياً كسائر شواطئ الاستحمام ، فما هذه إلا بحيرة عذبة الماء ، على حفافها بساط من سندس ، عليه يستلق المستحمون فى حرية يبيحها جو المكان ... وهنا وهنالك صخور مبثوثة كأنها الأرائك لمن يطيب له الجلوس ! ...

فإن تابعت خطوك ، ألفيت الطريق صاعداً بك ، كأنه يريد أن يسلمك إلى قلب الغابة ، ورأيت الفراشات بيضاً وسودا ، قد هبت من أعشاشها تتراقص حولك ، وتسايرك فى نزهتك ؛ كأنها

معك دليل يهديك السبيل ! ...

وكلما أوغلت فى الطريق ، ازداد شعورك بالدفء ولطف النسيم ، واستنشيت فى هذا الجو نفحة من نفحات المناطق الاستوائية ، تذكرك بجو الشرق فى سجوه ورخاوته ، فلو كان هناك نخيل يزهو بقوامه الفارع ، وهامته الشماء ، وسعفه الهفهاف ، لما أعوزك فى هذه المنطقة شىء من معالم الشرق الحبيب !....

أمران يروعانك فى هذه البحيرة : زرقة مشبعة تسطع وتتألق ، وصفحة هادئة مستقرة كأنها صدر الحليم ... وإن البحيرة لتستمد زرقتها من صبغة السماء فوقها ، ومن استقرار البحيرة فى هذا العمق تحتضنها شواهق الجبال ... على أن أطراف البحيرة تبدو بالغة الخضرة ؛ كأنها حليت بحاشية من الزمرد ، وما هى إلا انعكاس الضوء من تلك الأشجار المتكاثفة على الشاطىء ، أما هدوء البحيرة ، وجمال صفحتها المصقولة ، فإن الناظر إلى المستحمين فيها يحسب أنهم إنما يسبحون على حرير ناعم يشقون ديباجته شقاً ، ولكن سرعان ما تتلاقى الخيوط ، وتتلاحم الفتوق ، فتعود الصفحة رتقاء ملساء تلتمع فى فتنة وبهاء ! ...

وتسوقك الخطا على مهل ، فتلتقى بنظرك تتملى ... هذه فرجة فسيحة بين الأشجار تتيح لك الإلمام بالبحيرة مكتملة الروعة ،

فترى منها مرآة مستديرة أو شبه مستديرة ، مصقولة المحيّا ، زرقاء الصبغة ، مخضرة الحواشي ، تحيط بها أغصان الشجر ، ومن خلال الأغصان تبص عيون المغانى والفنادق والمشارب من بعيد ، كأنها تختلس النظر إلى تلك المرآة السحرية الصافية ، تحاول أن ترى نفسها فيها ... ومن فوق ذلك كله جبال عاتية تشمخ ، يتوج هاماتها ناصعات الثلوج ! ...

وينتهى بك السير إلى جزيرة « الليدو » ... وما أحراها أن تسمى « الجزيرة العذراء » ... جزيرة صغيرة تقوم وسط البحيرة فى جرأة ، لا تبالى من شىء ... إنها متوحدة مستوحشة ، نَفُور ... أجزيرة هى حقاً تتصل أرضها بقرار النهر ، أم مجمع أشجار تكاثفت فكانت دغلا طافياً على متن الماء ؟ ... ما أشبهها بالمعقل المنيع ، فإن نباتها ليتعانق ويتماسك ، حتى لا يدع لمقتحم مسربا إليه ، ليتعرف ما يحويه ... وإنك لترى المستحمين زرافات وفرادى سابحين أو ممتطين الزوارق الخفاف ، يطوفون حول هذا الدغل متصايحين ، ولكنهم لا يجسرون أن يقاربوه ، فهم يقنعون منه بهذا الطواف ، كأنه مارد جبار ، يستشعرون له مزاجا من الرهبة والتقديس ! ...

وتستأنف سيرك ، حتى توشك أن تستكمل حول البحيرة

دورتك ، فإذا أنت أمام عائمة من الخشب ، تتخذ شكل المغانى السويسرية الأصيلة التى تسمى « الشاليهات » ، تلك المغانى الريفية بطابعها القديم ... هى مثابة المستحمين ، يدخلونها كاسين ، ويبرحونها أشـــباه عراة ، وهم يتقافزون إلى المـاء فى معابثة ومراح !...

وعن كثب من هذه العائمة الطريفة مشرب رشيق أرجوانى الصبغة ، فالحمرة تغشى مظلاته ومقاعده وموائده جميعاً ، والناس يؤمونه بين مستحم ومستروح ، فإذا استويت على كرسيك هنالك تقضى بعض الوقت ، وطاب لك أن تطارح نادلة المشرب بعض الحديث ، فسألتها عن البحيرتين الأخريين :

أين تكونان ؟...

أجابتك من ثغر يبتسم :

إن كنت من عشاق الطبيعة المستوحشة ، فلا عليك أن تقصد إلى هاتين البحيرتين ، ففى زيارتهما متعة لمن يبتغى الكشف عن المجهول ، وإنها لرياضة مستحبة ، وإن شابتها متاعب ومشقات ... أما إن كنت ممن يأنسون بصحبة المستحمين على الشاطىء المتحضر ، فلا تبرح « كرماسى » ، لأنك لن تلقى فى بحيرتيك الأخريين مستحما أىّ مستحم ! ... والأكثرون من

زوار « فلمز » يقصدون « كوماسى » لينشدوا متعة الاستجام بين مفاتن الطبيعة ، فهم يقضون يومهم هنا فى قصف ولهو ومعابثة بين الماء والخضرة !...

ولا تكاد النادلة تفرغ من حديثها ، حتى تشعر بأن عينيك قد انبعثتا تحاولان كشف الحجب عن طوايا الغابة المتجهمة ، وكأنك تناجى نفسك بقولك :

هذه النفس البشرية أمرها عجب ... لقـــد تزهد فى القصف واللهو والمعابثة ، وتتوق إلى الجهود المضنية فى المجاهل المستوحشة ، فترتمى فى أحضانها تلتمس متعة التجديد ، متعة الاستطلاع ، متعة الإحساس بالخطر ... إنها الملالة من المـــألوف ، والصبوة إلى المجهول ، والطموح إلى الغلبة : عناصر غريزية كامنة بين الضلوع ، هى التى تملك علينا الأهواء ، وتخط لنا المصاير ، وتدفع بنا إلى حيث نلاقى حتفنا ونحن راضون !...

ويغشاك الصمت هنيهة ، صمت الحالم يطير به الخيال كل مطار ، ثم تصحو من حلمك ، لتدعو إليك نادلة المشرب ثانية ، فتستزيدها عما تعلم من شأن البحيرتين الأخريين فى دخيلة « الغابة العذراء » ...

ثم تنهض خفيف الخطو ، يدعوك نداء المجهول ، فتتخاف

وراءك الحياة البهيجة الأنيسة يتزايل صخبها عنك ، وتقتحم الغابة التى يطبق عليها السكون والصمت فتحس الوحشة تغزو مشاعرك ، وقد شحب ضوء النهار من حولك ، وتزاحمت الأشجار دونك ، توشك أن تطبق عليك ، فتواصل سيرك فى الدغل المشتبك ؛ كأنك تشق بنفسك وجه الطريق !...

وأنت تمعن فى السير ، فيخامرك الشعور بأنك رائد يتدسس إلى قلب « غابة عذراء » ... الطريق يعلو بك ويهبط ، ويتسع أو يضيق ، ولكنه أبدا ذلك الطريق المتوحد الذى تخيم عليه الظلال !...

وبين الحين والحين تصادفك أودية ضئيلة ، يتوارى قرارها تحت الأعشاب النامية فى هيجة ورعونة ؛ فكأنما هذه الأودية مسايل نهر خفىّ ، يتسرب فى بطن الأرض لا تناله العيون !...

وعلى مد الطريق تواجهك الصخور الصم الغبر ؛ كأنها أصنام منحوتة على مثال كائنات غير بشرية ... كائنات كانت تسود تلك المجاهل فى عصر سحيق ... لا صوت هنا إلا خفق قدميك على أديم الأرض ، وإلا وقع العصا تفسح لك السبيل ، وإلا وسوسة الأفنان يناغى بعضها بعضاً فى همس ...

ولربما طوح بك الوهم فى هذه الغابة الصموت ، فتحسب أنك

فى دغل إفريقى يتجافى عن العمران ، دغل يعمر بالزواحف والكواسر والسباع ، وما هذا الصمت إلا فترة ترقب وترصد يعقبه انقضاض وافتراس... فتسرع التلفت ، وتحث الخطا ، وإذا صوت رفيق يصافح أذنيك ، إنه خرير جدول لايسفر للعيون ... ومهما تحاول البحث عن هذا الجدول ، فإنك لا تعثر له على أثر... أثمة جدول حقاً ؟ ... لتكن ما تكون أيها الرفيق المؤنس . حسبك أنك نفيت الوحشة ، وأسبغت على النفس أمناً ورضا... إننا لا نراك ، وإن كنا نحس وجودك ، كما يحس المرء أطياف الراحلين الأعزاء ، وقد ألموا فى تطوافهم به ، يناجونه ويؤنسونه، وإن تقطعت بينهم وبينه أسباب الحياة .

وتوالى سيرك ، وهذا الجدول اللطيف يصاحبك ، حتى يفضى بك إلى أولى البحيرتين ، فتقف تجاهها تتأمل... بركة قفراء ، ماؤها غير رقراق ، منطوية على نفسها هَيُوب ، ولكنها مع ذلك تسفر لك عن جمال يأخذ بمجامع القلب ، جمال العزلة والانفراد ، جمال الانقطاع عن كل مايصلك بحياتك التى ألفت ، جمال النسيان ! ...

على هذه البحيرة يرتسم فى خلدك أن العالم قد غفل عنك ، وأن اسمك قد حذف من هذا الكون العريض ، فتشعر بأنك قد تحررت من كل قيد ، وأن نفسك انطلقت على سجيتها انطلاق

الأرواح فى عالم الخلود ! ...

وإلى البحيرة الأخرى تلق عصاك ، فكأنك تستأنف طريقك الذى قطعته عوداً على بدء ، طريق الغابة العذراء ... وديان خضر تستكن بين جذوع الشجر ، كتل من الصخور متجهمة عوابس ، صمت تطبق عليه الظلال ، وأخيرا ... بركة قفراء هيوب ! ...

وتخرج من غابة الصمت والظلام ... فيستقبلك ضوء النهار فى إشراق وجلال ، ثم تتناهى إلى سمعك أنغام موسيقية مشبوبة ، ولا تلبث أن تجد نفسك قد طرقت « الكازينو » ، وإذا أنت فى ضجة الحياة الصاخبة ... ها أنت ذا قد عاودت دنياك المألوفة ، فما أسرع الزمن الذى نقلك فى لحظات من مجاهل الأدغال إلى مجالى الحضارة والترف ، بل ما أعجب ما تحويه « فلمز » من غرائب وأضداد ، فهى تتنقل بك بين أجواء متناقضة ، وبيئات متباينة ، وأنت فيها ماكث لا تبرح ... إنها ربة معجزات ! ...

ظللنا يومين تحت وابل من المطر ، نمضى أطول الوقت فى أبهاء الفنادق والمشارب ، مرة نتصفح الوجوه ، ومرة نطالع الصحف ، يشغلنا لغو الناس تارة ، ولغو المذياع تارة أخرى ... فإذا مللنا ذلك كله نهضنا نطرح على أكتافنا شملات فضفاضة واقية ، ونغطى رءوسنا بطراطير طوال ، وخرجنا شجعانا نخوض معركة الأمطار ! ...

لزام أن نجرب التجول والتنزه والطبيعة رعناء غضوب ، كما كنا نجول ونتنزه وهى موادعة طروب !... ما أطيبها نزهة بليلة ، يتساقط فيها القطر المنعش على وجوهنا الضاحكة اليقظى ، ونحس الماء ينصب على ثيابنا انصباباً ، ثم ينزلق عنها دون أن يصيبنا بأذى ، ونرى الطريق حيالنا ملتمع الصفحة ، كالزجاج الأملس ، والغابة هنا وهنالك تنبسط عليها غلالة طافئة من ضباب الجو ، فتكسوها مسحة من سحر الغموض ، سحر الهيبة والجلال !...

وتميل بطرفك إلى الوادى الرحيب ، فتشهد المروج الفساح بمغانيها الزاهية ، ينهمل عليها المطر ، فكأنها تذوب ويسبح بعضها فى بعض ، ينبسط عليها جميعاً صبغة رمادية خفيفة الغبرة ، لا تترك للعين من معالم الحياة فيها إلا أطياف كأطياف الذكريات البعيدة !...

وما هى إلا أن تراجع البلدة ما كان لها من صحو وإشراق ، فتمزق الغابة عنها غلالتها الطافئة الرمداء ، وتبدو متجردة زاهية المفاتن ، وإذا الوادى تتجمع أوصاله ، وتتخاوق معالمه ، يسفر عنها وضح النهار الدافىء الجميل .

ومن ثم تصافح سمعك من فوقك وثبات السناجيب الرشيقة ، وهى تتردد بين الغصون فى فرح وانتعاش ، وعلى أديم الأرض تطالعك قطعان الأبقار ، منطلقة إلى المراعى ، تنشد غذاءها

الرطب العبق ، وإنها لتسير فى وقار الحكماء ، مصروفة عما يحيط بها من الأشياء والناس ، كأنها من تفكيرها فى شغل . تراها تطرق المسالك العامة ، وتنفذ بين الدور الخاصة ، وتقف حيث تريد ، وتمضى حيث تهوى ، لا يحجزها حاجز ، ولا يردها عائق ، فهى مأمونة الجانب ، رشيدة السعى ، ذات بصيرة نيرة ، وفطنة موفورة ، لا تعبث بشىء ، ولا يضيق بها أحد ، تسالم الخلق من حولها فيسالمها الخلق ، وتشق طريقها فى طمأنينة وهوادة ، رءوسها تهتز يمنة ويسرة ، فى حركة راتبة ، فينبعث من الأجراس المعلقة فى أعناقها صوت متناسق ، يعلن للملأ مرور «موكب الفلاسفة» !

كل شىء حيالك مستيقظ مستبشر ، يتقاضى حظه من المتعة فى هذا الفيض الزاخر من النور والبهجة . فلتختر لك نزهة فى الهواء الطلق ، ولتقرب بخطاك إلى محطة « المقعد الكهربى » ... لا تخش بأساً ، فليس مقعدك هذا كرسى الفناء الذى يتخذه الأمريكيون لقتل المحكوم عليهم بالإعدام ، وإنما هو كرسى الحياة فى عالم طريف تمتزج فيه الحقائق بالأوهام ! ...

هذا المقعد الكهربى الطائر ، أو « المركبة الهوائية » ، وسيلة من وسائل المواصلات ، استحدثها العقـــل البشرى أداة مريحة لارتقاء الجبال ... هناك بقعة سامقة اسمها « ناروس » ، اختيرت

لتكون « محطة الوصول » ، فيها تستمتع بمباهج الجبال ، وتشهد عن كثب روعتها الخالدة ... فإذا أبيت وراء ذلك إلا المزيد ، فلتعد للأمر عدته ، ولتتجهز لاقتحام ما يعترض طريقك من الأوعار . وعليك أن تعوّل أول ما تعول على القدم الصلبة والساعد الأشد ، ولكن مالك ترهق نفسك ، ولا تقنع بهذا « الكرسى الكهربى » المريح ، يحملك على متن الهواء ، كما يحمل الطائر الرءوم فرخه الحبيب !...

وتقتعد « الكرسى السحرى » ، فيقفز بك قفزة تلقيك فى جوز الفضاء ، وإذا أنت سابح بين الأرض والسماء ... لست سجين طائرة يحكمون إغلاق أبوابها ونوافذها عليك ، وإنما أنت فى نزهة طريفة تمتطى نسراً يترامى بين الآفاق ، ولكنه نسر حذر ، لا يبعد بك فى طباق الجو ، بل يعبر بك الأنهار والمروج والأحراج فتشهدها دون ناظريك ، كأنك تتخطى أعاليها لا يمس قدمك منها شىء ، وهذه سطوح الدور الريفية من تحتك ، تمر بناسها وأبقارها وكلابها مرّ الكرام ، وهم يشخصون إليك يحيونك فى ترحاب . وإنك لترتقى مدارج الجبل على ظهر طائرك السحرى ، فى هينة ويسر ، حتى تبلغ الغاية عند « ناروس » .

ولا تكاد تقفز عن ظهر الطائر ، حتى تتلقاك جماعات من

الماعز ربيبة الجبال ، فتحيط بك أفواهها تتشمم، وتطلق نداءها لك تتقاضاك ضريبتها على الزوار ، وإنها لتعقد من حولك سياجا يحول بينك وبين التقدم ، حتى تنيلها ما تبغى من عطايا ومنح ، فإذا نالت مأربها منك ، صدفت عنك ، لاهجة بحمدك ، تردد ثغاءها الرقيق ! ...

وتلقى ببصرك تجاهك فتجدك على مستشرف صخرى ، خلفك القمة الناصعة العليا موصولة بكبد السماء ، وأمامك المنحدر المخضوضر العظيم ، ينبسط حتى يطوى « فلمز » وما وراءها من البلدان ! ...

على هذا المستشرف تتخذ مجلسك فى مشرب ساذج ، وأفواج الماعز تجوس خلال الموائد والمقاعد ، تبحث عن زائر أفلت منها يؤدى إليها المنحة المقررة من الطعام .

هذه مملكة الجبال ، حامية الشمس ، باهرة الضوء ، باردة الهواء ... قاحلة ليس فيها نبات ... وأنت تقف هنا على عتبتها تخشع لجلالها المهيب ، وتقنع منها بالنظر العابر ، فإذا أغرتك فتنتها القاسية بالتوغل ، فألقيت فى أحضانها بنفسك ، فهنالك لا بد لك من مصابرة ومقاومة وصراع ... إنها قوى الطبيعة الجبارة ، وعناصرها المتمردة . إما انتصرت عليها فضمنت سلامة الأوبة ،

وإما ترديت فى مهاويها فثويت : وسادك من صخر ، وغطاؤك من ثلج ... وما أظنك مشوقا إلى أن تتوسد الصخر الخشن ، ولا أن تتخذ من الثلج غطاء أبديا لك ... حسبك إذن أنك أمتعت ناظريك ، وأشبعت فضولك ، ولتهرع إلى طائرك ، يردك إلى مأمنك ، ومن خلفك أمواج الماعز متواثبة تلهج بهذا الثغاء الذى تعبر به مشاعر التوديع ! ...

الأيام تترادف صاحية السماء ، رخية الهواء ، فهلا اغتنمت من الجو هذه الهدنة ، فخرجت إلى النزهة ؟ ...

إلى « كون » ... غابة تحتشـــد فيها الأدواح باسقة فوارع ، تلحظ فيها ظاهرة لا تكاد تلحظها فى غيرها من الغابات . فإن أفنانها المتعانقة ، والضوء يحاول أن يتسلل إليها ، لترق وتلطف ، ممتزجا بعضها فى بعض ، عليها غبرة أميل إلى البياض ، فيخيل إليك أن هذا ضباب رقيق قد أطبق عليك ، يسد المسالك دونك ، ولكن الطريق الفسيح المعبد ، بما تقرأ عليه من لافتات متتابعة يهديك السبيل فى يسر ، حتى يبلغك مثابة الأمان . فإذا انسلخت من مملكة الضباب الخضراء ، طالعك على الفور مرج هفهاف ، مترامى الأطراف ، كأنه بحر هادىء الطلعة ، رقيق النسمة ، يسطع لونه الزمردى سطوعا يبهر النظر ، فتراك تضرب فى أرجائه خفيف

الخطو ، طروب النفس ، كأنما قد نبتت لك أجنحة ، أنت بها على وشك أن تطير !...

ومتى وصلت إلى شاطئ ذلك البحر المتنضر ، أو مقطع ذلك المرج المتموج ، فأنت إزاء عالم جديد فريد ، بيد أنه عالم محوط بالمخاطر الجسام ... إنك الآن على رأس شفيرهار ، ينتهى بواد عريض الجنبات ، وعلى حافته الأخرى جبال متساندة شوامخ ، ومن صدر الوادى ينبثق نهر «الرين» ، وهو يتعرج ويتلوى متدفقاً هنا وهنالك ، متألقاً فى وهج الشمس ، كأنما هو سبيكة من فضة أذابها الوهج ، فانسكب ذوبها على الأرض منساباً على غير هدى!.

ما أجمل السير على رأس هذا الشفير الهارى . والنهر تحت قدميك هادر موّار ، والقرى أمامك على سفوح الجبال معلقات ، والدنيا كلها ضاحكة جياشة تمرح فى بحبوحة الأمل ، فلا تملك إلا أن تقاسمها البهجة ، طارحا عنك ما تحس فى حياتك من هموم وأثقال ، مواصلا خطاك فى خفة الصبى النزق ، تستهويك المخاطر غير هيّاب ولا حذر ، مزهوا بما يعتلج فى قلبك من إحساس قوى بالحياة !...

فى هذه البقعة الفريدة ، تتساير قوتان جبارتان تتساندان ، على ما بهما من تناقض : قوة البقاء وقوة الفناء ... لقد أتيحت

لها هنا حياة موادعة ومسالمة وصفة ؛ لا حياة معاندة ومغالبة وكفاح ! ...

ثمة نزهة أخرى يصفها دليل السياحة لمن تقدمت بهم السن ، وحفت بهم مواكب الشيخوخة ! ... نزهة هينة ليس فيها ما يرهق ، فهى أصلح ماتكون لتلك الفئة المحظوظة من عباد الله ، فئة الواغلين فى الحياة ، أولئك الذين نسيتهم يد الجلاد الملثم . فترة من الزمن ! ...

لنمض إذن كما أشار الدليل إلى « بوكين » ...

أى شىء أولى من «بوكين» بأن يزوره العجائز والشيوخ، وفيها تقبع طائفة من الأدواح الهرمة الضخام ، امتد بها العمر مئين من السنين ... ثابتة لعاديات الدهر ، صابرة على أحداث الزمان ... هذه مثابة العجزة من النبات ترحب بالعجزة من بنى الإنسان ! ...

نهضنا إليها بطاء الخطا ، فى تزمت وتسمت ، وتتكلف وقار الشيخوخة ، متحاملين على العصى ، كأننا من فرط الإعياء هالكون ... وتسربنا فى شعاب الغابة ، كأننا نضطرب فى متاهة مسحورة ، فلما أشرفنا على تلك الهياكل المهيبة من شيوخ الشجر ، جعلنا نرجع البصر حولها نتعرّف زوارها من شيوخ البشر ، ولكننا لم نر ثمة إلا شباناً يمرحون متوثبين للحياة فانثنيت أفكر فيما أرى ، والدهشة تعرونى لحظة ، ثم بدا لى أن ليس فى

الأمر ما يبعث على دهشة أو عجب !...

لا تجدن مسنا إلا يصدف عما يذكره بعلو سنه ، واستبانة الشيخوخة فيه ، فهو عن تلك المشاهد معرض ، ومن تلك المعالم نفور ... فيم إقباله على شيء يريه الفناء دانياً منه ، وحب البقاء فى نفسه غريزة قاهرة وطبع غلاب ؟... أما الشاب الذى هو فى إقبال من العمر ، وفتوة من السن ، فعلام خشيته من مخايل الشيخوخة ومعالم الهرم ؟... وكيف لا يطيب له أن يتلهى بمرآها وإنها لتبدو لعينيه طريفة تجتذب المشاعر وتستهوى القلوب ؟ ...

ثمة تجاوب وتجاذب بين النقيضين من شباب وشيب ، وإن سر الحياة ليكمن فى هذا التآلف بين المتناقضات ، أو بالأحرى ما يلوح لنا أنه من المتناقضات ، فبهذا التآلف العجيب يسمو ذلك الصرح العظيم ، صرح العالم المعمور !...

وقفت مليـا أتوسم أصدقائى الشيوخ فى مملكة النبات ... لا ريب أنك تحس لتلك الأدواح العظام خشوعا وهيبة ولكنك لا تستطيع أن تدفع عن نفسك الشعور نحوها بعاطفة الرثاء والاشفاق ... أنت أمام طائفة من أعجاز ضخمة ، وجذوع جهمة ، تحاربت عليها التجاعيد والأخاديد ، حتى طمست ما لها من ملامح وسمات ، وهذا أديم الأرض من حولها يتأكل ويتخلخل ، فيكشف

ستر الجذور الخاوية ، ويدعها تتفتت وتتعرى ، محاولة فى تعقدها والتوائها أن تتشبث بأطباق الثرى ما وسعها أن تتشبث ! ...

حول هذه الفئة المسنة من الجذوع والأعجاز ، تنمو عمالقة من شباب الشجر ، مورقة فينانة ، تزهو بقدودها الفارعة، وغصونها الطامحة ، سامية بهاماتها إلى السماء ، تجتلى النور وتعب الهواء ، لا يصدها شيء عن توثب ومراح ، إذا اكفهر الجو انطلقت مع العاصفة تعبث وتعربد ، وإذا صفا الأفق كان حفيف أوراقها أنغاما موسيقية يسمعها الطـــير على الغصن المياد ، فيراسلها بالأهازيج ! ...

إنك لتتخيل هذه الأشجار الفتية وكأنها فى الغابة صائلة جائلة ، لا تهدأ لها حركة ولا يقر لها قرار ، وبجانبها تقع الأشجار المسنة فى مكانها لا تريمه ، جذورها ناشبة بباطن الأرض فى استماتة وإلحاح، ينكمش بعضها حول بعض فى صمت وسكون ... أتراك أيتها الأشجار تعرضين صفحات ماضيك السحيق ، تستمرئين فيها المتعة من ذكريات الشباب المولى ؟... وهل فى تذكار الماضى مايسر ؟... كلا ، إنها لأطياف متع ، وأوهام ملذات ، وماحياتك كلها إلا ماض أدبر، وما أنت إلا كتل صم خرس ، كأنها صخر صلد ... ولقد يقع فى وهمك أنك محظوظة بهذا الماضى البعيد، محسودة على ذلك العمر

المديد ، ولكن من يرضى أن يشـــترى عالم الظلمة والوحشة والخراب بلمحة من نور الشمس ، وخفقة من زهو الحياة ؟!...

فيم بقاؤك أيتها الأشجار العجائز ، والكون لا يفسح بين جوانبه مكانا إلا لمن يسدى النفع ، ويؤتى الثمر ، وأنت لا تؤدين ضريبة الوجود ، حتى إن الحطاب ليمر بك فى غير اكتراث ، لا يستهويه منك شىء ، يضن بفأسه على جذوع نخرات باتت مرتعاً للسوس ومأوى للحشرات !...

لحكمة بقيت تعمرين أيتها الأشجار ، فإن شيخوختك الصامتة لتحفل بتجربة الدهر وعبرة الأيام ، وإن الحى ليتأمل سطورا خطتها يد الأقدار على جبينك المتغضن ، فإذا هى تحد من غروره ، وتكفكف من غلوائه ، وإذا هى تلهمه روائع من العظات يفقه بها فلسفة البقاء والفناء ! ...

حسبنا ما شهدناه من نزه « فلمز » ... فلو أطعنا الهوى فى الخروج إلى ما هنالك من بحيرات وغابات ومشارف ، لما بقى لنا من الوقت ما نحتجزه لزيارة غرضنا المقصود ، وهدفنا المنشود ، أعنى صاحب السطوة والاقتدار ، صديقنا « الطبيب » العظيم ! ...

علينا أن نختار نزهة واحدة إلى خارج « فلمز » : نزهة نزور فيها ما هو أخلق بالزيارة فى تلك البقاع المتطرفة ... ووقع اختيارنا

على « أروازا » التي تبعد عن « فلمز » نحو ساعتين ... بلدة جبلية تتميز بطيب الهواء ، وتتفرد بموقع شائق ، وهي لذلك مصح عالمي ذائع الصيت ، يحج إليها مرضى الصدر فينشدون فيها النقاء والشفاء ، وهي فوق ذلك مثابة مشهورة يؤمها في الشتاء هواة الانزلاق على الجليد ، يمارسون فيها تلك الرياضة الطريفة .

وفي مبرق الصبح نشطنا نركب الحافلة ، وجهتنا « كوار » ، فاجتزنا « فلمز » القرية ، وهي تنخفض عن « فلمز » المتنزه ... ومضت بنا الحافلة في سيرها تشق طريقاً ممدوداً تكتنفه الجبال الشواهق ، كأنها ذراعان ضخمتان عن يمين وشمال ...

أمام ناظريك عباب من نبات الأرض هادىء الصفحة ، زمردي الصبغة ، يفيض على النفس طمأنينة ورضا . وبين فترة وفترة تبرز لك جزر لطيفة ، تارة تعترض طريقك وسط عباب الخضرة ، وطوراً تراها عالقة بما تحسبه شاطىء العباب ... إنها قرى تتناثر في صميم الريف السويسري ، تخالها منعزلة ضائعة في ذلك الخضم الشاسع ، وهي في الحق موصولة بأسباب الحضارة والعمران ... فإذا طرقت إحداها ، واحتواك فيها مشرب كل تترشف قدحا من القهوة ، راعك ما تأنسه في ذلك المشرب الريفي من نظافة وأناقة وجمال . واسترعى انتباهك ذلك الأسلوب العصري في

تأثيث المشرب وتنسيقه وإنارته .

ولعلك تعجب كيف عرف « الفن الحديث » سبيله إلى تلك القرية النائية ، فطغى على عرفها الموروث فى التنسيق والتجميل ، ولكنك تدرك أن الطريف النافع — وإن استغربته الأذواق ، وخالف رســـوم الأوضاع — مكتوب له الذيوع والانتشار ، وإن بعدت الدار ، وشط المزار ! ...

وتواصل الحافلة سعيها بك ، تخترق الشاطىء المشرف على بحر الزمرد ، وتجوز بالقرى فى سير هين ، فيتجلى لك الروح الدينى عظيم المهابة ظاهر السلطان ! ... على رءوس المسالك ، وفى بهرة الميادين والساحات ، تقوم تمـاثيل القديسين ؛ لتسترعى إليها أعين الخشوع والإجلال ، ومن حواليها تسمو الكنائس رفيعة الذرى فى أشرف المواقع ، ومن نواقيسها يتعالى الرنين مهيباً بالأهلين أن يتطلعوا إلى السماء ، وأن يستقبلوا وجه الله ، فلا تلبث الجموع أن تستجيب ، مقتبسة من سنا الرحمة والمحبة والهدى ! ...

الله فى كل مكان ، فيضه يغمر الكائنات جميعاً ، فيشغل كل حيز ، ويملأ كل فراغ ... بيد أنك لاترى الله جهرة ، وإنما يقول لك سبحانه أحس بى تلقنى ، واستشعر وجودى ترنى ، ولكن القلوب أكثرها غُلْف ، ومن البصائر ماهو مطموس ، ومن الحس

ما هو متبلد ، فلتقرع النواقيس مجلجلة مصاصلة ، ولينبعث دويها في الآفاق يذكى النفوس الخوامد لتستشعر وجود الله ، ويوقظ العيون النواعس لترى واهب الحياة ! ...

وتجدك مقبلا على « كوار » ... فتزايل الحافلة ، لتجول فى المدينة جولة ، وإذا أنت قادر أن تلم بأطرافها فى ساعة من الزمن ، وأكبر ما يلفت النظر فيها هذا التناقض المحبب ، هذا المزاج الرائع من ريف وحضر ، من معالم تمثل مدنية العصر الراهن ، وأخرى تمثل العصور الوسطى وعهد الإقطاع ! ...

تضرب فى شوارع البـــلدة ودروبها ، فترى الجبال الخضر والحقول الخصبة تطل عليك من كل فرجة تصادفك ... أنت هنا فى عاصمة الإقليم ، كل ما فيها يشعرك بحياة المدنية التى بلغت شأوا بعيداً فى التحضر ، وعلى الرغم من ذلك تحس بأنك فى صميم الريف ، فهذا النسيم يحمل لك فى أعطافه عبق المراعى ، وشذى الرياحين ، وإن خوار البقر ليطرق سمعك وأنت بين يدى متجر تتسلى بما يبدو فى معرضه الزجاجى من أزياء « باريس » وسلع « نيويورك » ...

ولا تكاد تنحدر عن الشارع العام بحضارة العصر ، إلى درب من الدروب المتفرعة ، حتى تراك قد انتقلت إلى العصور الوسطى ، طريق يضيق ، أرضه من حجارة غلاظ ، على جانبيه أبنية متقاصرة

عتاق ، حليت جدرانها بالنقوش والرموز والتهاويل ... ولقد تقف أمام قبو متطامن، أو بوابة أثرية ، أو مدخل مظلم لدار تقادم عليها الزمن ، فترف على خاطرك أطياف من معالم معهودة لك ، حبيبة إلى قلبك ، هي معالم «خان الخليلي» و «التربيعة» في القاهرة ، وسرعان ما تحس انقباضاً وحسرة ، إذ ترى هذا الذي يطالعك الساعة في «كوار» يمثل الماضي في إحسان صقل، وإبداع تنسيق» فيبرز محاسن هذا التراث ، ويزيده من تألق وإشراق ... أما في «مصر» خاصة ، وفي الشرق عامة ، فإن تراثنا الثمين على جمال سماته، وفتنة سحره ، يبدو وقد شوهه الإهمال ، فأفقده الجمال ! ...

وابتغينا المحطة نطلب القطار ، قطار الضواحي الجبلية، المتسم بطابع الأناقة والرشاقة ، فانساب بنا إلى أطراف البلدة ، يُشهدنا ذلك الطوار العريض المظلل بالعرائش الخضر، تحتمي بها المطاعم والمشارب والأندية ...

وزاملنا النهر ، فضي اللون بسام الطلعة ، تتوالى عليه قناطر من الصخر ، والقطار على هينته يتعجل ، حتى لا يفوتنا التأمل ، ثم يرتقي بنا مدارج الجبال ، فتنكشف لنا الغابات متراصة على السفوح، وتتراحب دوننا المهاوى السحيقة يترقرق بين أحضانها النهر الفضي الوادع ، وتباغتنا الأنفاق واحداً بعد احد ، فتسلمنا إلى القناطر

الحجرية ، متعالية بصـــدورها كأنها تبرز تأهباً لعبور القطار ، وتتوالى علينا المحطات محلاة نوافذها بألوان الزهر ، حتى نداني « أروزا» ، فتتراءى لنا بحيراتها الحسان ، وعلى حافاتها المصحات والمغاني ترصع الجبل الخصيب ! ...

وما نزال كذلك حتى يوفى القطار على غايته في تلك الرقعة النائية ... فإذا هبطت البلدة ، وطوفت ببصرك حولك ، ألفيت المدينة طبقات بعضها فوق بعض ، مسالكها ومنازهها وبحيراتها الثلاث ... إنهـا مشارف عالية ، تنفرج تحتها الوديان الشواسع وقد كستها الطبيعة من نسجها أبهى زينة وزخرف ! ...

وتجول في المدينة لتزور بحيراتها الغاصة بالسابحين والمتنزهين، وتلم بمتاجرها الحضرية الأنيقة ، وتجوز بما فيها من مختلف الدروب والرحبات ، فإذا هي بقعة ساجية كلها سكينة وصفاء ، لكأنك بين جوانبها في محراب للصلاة ، لروحك منها أمن وطمأنينة وارتياح .

إنها بلدة يزعمونها للمرضى مثابة ومأوى ، وما يجرؤ المرض أن يرفع هنالك هامته ، ففي هـــذا الإشراق الساطع ، والدفء الشامل ، والجو الرخي ، يتفقد المريض أوصابه ، فإذا هي قد تخلت عنـــه ، وإذا هو قد نفض عنه فراشه ليستمرئ العافية ، ويتملى بهجة الحياة ! ...

رجعنا أدراجنا إلى « فلمز » والظلمة تحبو على حواشي الأفق ، ونسيم الليل البارد يعابث الوجوه ، ويسرى متسللا إلى الأوصال !...

آن لى أن أمسك عن التطواف فى هـــذه المدينة وما حواليها من الضواحى ، وأن أخلد إلى شىء من الراحة فى ركن خلى ، أسجل بعض الخواطر والمذكرات ، وأطالع ما تيسر لى من أنباء الصحف ، إذ بعد عهدى بالعالم وما يدور فيه من أحداث وشئون مضحكات تبكى الطروب ، أو مبكيات تضحك الحزين !...

آثرت مشربا فى ناحية من المدينة ، على طريق مهجور ... مشربا يقوم على هضبة مستضعفة ، تطل شرفته على شجيرات فانية خاوية ، فهو ينأى عن ضجيج المدينة فى ميدانها العامر بالحافلات والسيارات ، ينأى عن هذا الجمع الزاخر من رواد المصايف الجبلية ، يتخايلون فى أكسيتهم الكاشفة ، وذلك الشرطى العتيد ـ شرطى « الأحد » ـ فى حلته وحلاه ، يوهم نفسه والناس معه أنه حامى ذمار البلد ، والمهيمن على أقدار البشر !...

لا شىء من هذا كله تحت سماء ذلك المشرب الساذج ، فما أحسنه مثوى للمطالعة ، ومهبطاً للوحى ، وخـــلوة للمناجاة ... هنالك ذهبت يوما أقضى الضحا ، منصرفا إلى الصحف والأوراق ، أتعهدها بالترتيب والتنظيم ، وإلى الأقلام أشرعها لخوض المعارك فى

حومة الفكر ومعمعان الخيال ! ... وأنا مسترخ فى جلستى ، أترشف من قدح القهوة على ترفق واتئاد ! ...

وتتهادى إلى سمعى رقائق أنغام ؛ كأنما هى غناء هامس ، أو كأنما هى أنشودة الطبيعة حوالى ، فلا أعنى نفسى بالسؤال عنها : من أى مصدر تنبعث؟ ... حسبى أنها ألحان شاجية يتحنن لها القلب ويصبو ... وأرانى مصغياً أتسمع على غير قصد ، وأمامى الصحف والأوراق مبسوطة على المنضدة تترقب ، وأقلامى تخالسنى النظر بين آن وآن ، مسنونة الأطراف ، مشبوبة الشوق إلى المصاولة والنزال ، وما تزال الأنغام الرقائق تتواصل على سمعى ، وأنا حالم النظرة ، سابح الخطرة ، أحسب نفسى أستنزل الوحى وأستدنى الإلهام من علوى الآفاق ، حتى يمتد بى الوقت وأنا عن كل شىء ساه ... فيثوب وعيى إلىّ حين ينقطع عنى وافد النغم ، فأرفع هامتى أتساءل : ماخطبى ؟ ... فإذا الساعة المعلقة على الحائط تعلن لى فى ابتسامة حيية أن موعد انصرافى قد حان ...

هأنذا أمضى قرابة ساعتين من نهارى على هذا الكرسى الرخى ، وما برحت يمينى بقدح القهوة عالقة ، وقبالتى الصحف والأوارق تتهامس فى شأنى ، والأقــــلام المسنونة تتغامز بى ... حقاً لم أقاربك أيتها الرفاق ، فلتقولى إنى لم أفعل شيئاً ، ولتسخرى ،

منى ما بدا لك أن تسخرى ، لك أن ترمينى بأنى أضعت الوقت فى « لاشىء » ، ولكن هذا « اللاشىء » فى نظرى « شىء » عظيم ، « شىء » عزيز ، « شىء » يتصاغر دونه كل شىء ! ... إنه دعة النفس ورخاوة الوجدان ساعة من زمان ... أثمة ما يعدل هذه المتعة الغالية ؟ ... إليك عنى أيتها الصحف والأوراق والأقلام ، بل إلى النار والدمار والانكسار ... إنى لأبيعك جميعاً ، ومعك أمجاد الحياة وعظائم الدنيا بأسرها ، لأشترى بك جانباً من هذا « اللاشىء » ، هـــذا الذى يبدو تافهاً لا خطر له ، وهو فى الحق لا نظير له فى نفاسته وعزازته ، لأنه يحوى زبدة الحياة وما فيها من جوهر رفيع ! ...

تلاحقت أيام «فلمز» حلوة هنية ، قضيناها فى صحبة تلك الغادة الطائرة ، كأننا ننعم بحلم يترقرق صفاء وعذوبة وبهجة .

وحان رحيل ...

ركبنا حافلة تقصد بنا إلى « كوار » ، ليقلنا القطار هنالك إلى « لوزان » ... فى هـــذه الحافلة أخلاط من الناس ، بينهم رواد المصايف ومن إليهم من ذوى الجاه والثراء وهم يجالسون العمال والقرويين ومن إليهم من كل ذى حرفة ومهنة ، لا يعييك أن تعرف فيهم جامع القمامة ومنظف المداخن وغيرهما من الأشباه .

ولكن الناس هنا على تباين طبقاتهم سواء ، يجمع بينهم مظهر لائق ، وسمت لا تنكره العين ، فما منهم إلا موفور الحظ من نظافة الملبس وحسن السلوك !...

ترى متى يسعد الشرق بمثل هذه المساواة ؟ ... لا يأس من الإصلاح ، ما دام السعى إلى رفع المستوى الحيوى واسع الخطا ، ومادام الوعى الاجتماعى إلى يقظة وانبعاث ...

ليس يسيراً أن تنصهر أمة طال عهدها بتعدد المنابت والأجناس ، وتنافر الأذواق والمشاعر ، وتباين درجات التربية والتثقيف ، وما يتم هذا الانصهار بين عشية وضحا ، ولكن كل آت قريب !...

أطلقت لخواطرى عقالها ، أفسح لها مجال التفكير والتأمل ، وأنا أعرض أشتات المشاهد التى صادفتنى فى أثناء زيارة المدن السويسرية فى هذا العام وفيما سلف من أعوام !...

إنى لأسجل تمجيدى لتلك الأمة الصغيرة بين ربوع « سويسرة » ، تلك الأمة التى تحفظ التوازن العالمى فى ميدان الحرية والسلام !...

ما أجل جهود الأمة السويسرية فى تعمير بلادها وتمدينها لكى تساير ركب الحضارة فى خطاه الفساح ... العمران فى كل

صقع ، تمتد يده الساحرة إلى القرية الضئيلة التى تحسبها فى العالم المنسى ، كما تمتد إلى الغابة المستوحشة التى نحسبها مأوى لغير الإنسان . أما الصناعة فى المدن الكبيرة فهى حركة دائبة ، عمال يعبدون الطرق ، ويشقون المسالك ، وآخرون يقيمون الجسور ويعلون الصروح ، وأنت فى كل عام تشهد جديداً من المنشآت والمؤسسات فى شتى مرافق الحضارة آلية وغير آلية .

إنى لأحنى رأسى إكباراً لتلك الأمة العظيمة ، فإن ملايينها الأربعة لهى أجدى على الإنسانية من ملايين من الناس يفوتهم الإحصاء ، يرددون أنفاس الأحياء وما هم بأحياء ...

لهذا البلد الأمين سلام !...

الفكرة الجديدة

أرأيت إلى السحب كيف تنبسط غلائلها بين السماء والأرض ثم لا تلبث أن تتلبد وتتكاثف في عرض الأفق ، وما هى إلا أن تنحل عزاها وابلا من الماء ، يهطل على الربوات والقمم ، وإذا هو على السفوح شلال عارم ، يهدر موجه ، متدفقاً إلى الوهاد والبطاح ، حاملا إلى الوادى الجديب أسباب الخصب والنماء ! ...

شبيهة هذه السحب بتلك « الفكرة الجديدة » التى تتجمع فى أفق الوطن ، منبعثة مما يعتلج فى نفسية الأمة من أشواق إلى الرفعة والتقدم ، وما يتمخض عنه الوعى القومى من رغائب وأهداف ، وما تزال « الفكرة الجديدة » تستجمع وتحتشد ، حتى تبلغ غايتها من التعبئة والتشبيع ، فإذا هى تعم أرجاء الوطن بغيث يحيى أرضه الموات ، ويطهر جوانبها مما يتدسس فى الأخاديد والغضون من أوضار وأدران ! ...

وكما تتخلق السحب ثم تتدفق ، طوعا لأقدار يترتب بعضها

على بعض ، ووفقاً لسنة الله فى خلقه ، وانسياقا مع الطبيعة فى عنانها الممدود ونظامها المرسوم ؛ — تنبثق كذلك « الفكرة الجديدة » فى موكب غير منظور من الدواعى والأسباب ، فهى قدر محتوم ، وسنة لاتبديل لها ولا تحويل ، وظاهرة تتخذ لها ماتتخذ الظواهر الطبيعية من المقومات والأسناد !...

ما تحسب أول وهلة أنه وقع فجاءة فى وقته ، وأنه عفو الساعة ، ليس فى جلية أمره إلا وليد تدبير خفى ، ربما استبهمت معالمه حتى على الذين خاضوا غمرته ، وزاولوا تجربته ، فإذا هم — وإن كانوا لا يعلمون على وجه التحقيق — دعاة وشيعة وأعوان ... لطالما دبرت الآراء المتلاقحة ، والخواطر المتناجية ، لونا من المؤامرات الفكرية لا ترى ولا تحس ، ولا يؤبه لها بادىء بدء ، ولكن جو البيئة يمدها بأسباب الغداء والنماء ، ومر الزمن يسعفها بأطوار الحياة والإيناع ، وماهى إلا أن تستعلن « الفكرة الجديدة » على نمط سوىّ ، لا شذوذ فيما تقوم عليه من فواتح وخواتيم .

هيهات أن تنبت « الفكرة الجديدة » فى غير إبانها ، وتعوزها عوامل الإنبات . فإن الحياة والحركة فى هذا الكون يحدوهما نظام محكم وتخضعهما قوانين منطقية دقيقة ، وإن للأحداث فى المجتمع الإنسانى من الطبائع والعلل ما للأفلاك السماوية حين تدور بحسبان !...

فإن راعتك فكرة جديدة فى مظهرها حين تنجم، أو استبطأت فكرة جديدة أنت ترى وجوبها وتنادى بها فظن بنفسك الظنون، وراجع أمرك فى روية وتدبر، ليتجلى لك على غير شك أنه لا عجلة فيما حدث أمس، ولا بطء فيما لم يحدث اليوم. فلكل شأن مهيئاته ودوافعه، ولطبائع الأشياء سلطانها الغلاب!...

والفكرة الجديدة ربما تسترسل فى ثورة عشواء مدمرة، كما وقع فى الثورة الفرنسية التى هبت تعلن حقوق الإنسان المدنية، وفى الثورة الروسية التى انبعثت تشرع للإنسان حقوقه الاقتصادية، ففى هذين المثلين تدفق شلال الفكرة عارما لا يبالى التخريب والتدمير، فهو يهدف إلى الرى والإخصاب، ولكنه يجور بفيضانه حتى يبلغ حد الإغراق، وعلى الرغم مما يبدو فى ذلك من شذوذ وإفراط، فإنه يمثل ظاهرة طبيعية لها مسوغاتها وملابساتها فى عهد الثورة الفرنسية وثورة الروس.

بيد أن الفكرة الجديدة على أية حال لا تعتم أن ينجاب عنها الشذوذ والإفراط، فتسير بالحياة فى قصد واعتدال، وفق المنهج الذى تحتمه البيئة ومقتضيات العيش، مما يوفر الخير للناس، ويحقق المصلحة للمجموع، فإن نجاح الفكرة وازدهارها رهن بما تحمل فى طواياها من صلاحية، والعالم يمضى صوب الرقى والتقدم

ويتطور نحو الخير والصلاح ، فكل فكرة ناجحة لابد أن ينطوى جوهرها الأصيل على خير الإنسانية ولا بد أن يرعى الصالح العام!.

الركب البشرى ينشد التعمير والتشييد ، ويسعى إلى التوافق والاندماج ، ويحلم بالوحدة والتكافل ، وهو إذا هدم فإنما يهدم ليبنى ، وإذا خرب فإنما يفعل ليعمر ، وإذا خاصم وحارب فلكى يحيا فى أمن وسلام . فالفكرة الجديدة فى عنفوان ثورتها لاتؤتى أكلها إذا لم تكبح جماحها ، ولا تنتصر على غيرها إلا إذا انتصرت أولا على نفسها ، فعونها على الثبات والاطراد كامن فى اتخاذها أهداف التجميع والتأليف والبناء .

للفكرة الجديدة فى أطوارها طبيعة ثابتة ، فإنها حين تنصبب من الأعالى طوفانا يغرق ، أو موجا يتدفق ، لا تلبث إذا تحدرت إلى شعاب الوادى لتشق طريقها فيه ، أن تتخذ فى مسيرها ذلك المسيل الأصيل الذى احتفرته الأحقاب والعصور ، لا لكى تركن الفكرة الجديدة إليه ، وتقنع به ، بل لتنفذ منه إلى مسايل مستحدثة ، بقدر مايسمح لها به حكم البيئة وطبيعة الوديان ، وتلك مرحلة الصراع بين القديم والجديد يتساجلان الغلبة ، ويتبادلان التأثير والتأثر ، حتى ينتهى الأمر إلى بقاء الأصلح ، فتأخذ الفكرة الجديدة طريقها القويم فى مزاج من العناصر الصالحة يثمر أطيب الثمرات .

والقد تهبط الفكرة الجديدة هادفة إلى أفق جديد ، لا يخلو من تطرف ، وقد رسمت لسعيها خطة معينة تبلغ بها الغاية، ولكنها تجد نفسها — فى سبيل احتفاظها بحياتها — قد انتهجت فى طواعية ومرونة منهجاً آخر تدعو إليه الملابسات والأحوال،وربما تم ذلك على نحو تسوق إليه الطبيعة الدافعة فى غير قصد ولا عمد . وحينئذ تبدو الفكرة الجديدة فى أثواب مفصلة على القدود، فتحمد ماصارت إليه من أوضاع عملية ، وترضى عما أتيح لها من حسن التطبيق !.

ليس بكاف أن تكون « الفكرة » خيرة صالحة نافعة لكى يؤمن بها الناس ويوفوها حظها من التقبل والإذعان ، فما تستغنى فكرة جديدة عن دعامة أخرى غير الخيرية والصلاحية والنفع ، هى أن تكون « إنسانية » تمت بأوثق الوشائج إلى هذا الآدمى الذى نريد منه أن يقيم من نفسه نموذجالتلك الفكرة فيما ترمى إليه . فلزام إذن ألا تخلو الفكرة من مختلف العناصر ، التى تمثل — أصدق التمثيل — ما تنطوى عليه نفسية الناس من غرائز ومشاعر ، وأكاد أضيف إليها النزوات !...

حياة الفكرة الجديدة فى أن يستجيب لها الشعور العام ، وأن يكون المرء قادراً على أن يداجها فى سعيه لنفسه وفى معاملته لغيره، فإن لم تكن الفكرة أهلا للاستجابة والمداجة فهى لا تزيد على أن

تكون لوناً من الدعوة الحرة أو الموعظة الحسنة ، ترتج لها أعواد المنابر ، أو تفيض بها أشتات النشرات ، دون أن تبلغ من العزائم والهمم مبلغ التنفيذ ، أو تنزل من القلوب منزلة الإقناع ، وقصارى ما تظفر به فى دنيا الناس محض الاستماع والاطلاع ! ...

والإنسان فى سيره إلى الكمال ، وطلبه المثل الأعلى ، لا يفتأ يهفو إلى الفكرة الجديدة عصراً بعد عصر ، فلكل عصر فكرته ، تحيا فيه موفورة الإكبار والتقدير ، حتى تتأصل جذورها فى المجتمع ، وتكاد الأمة يوليها شرف التقديس ، ولكن الفكرة تجمد على الزمن ، وركب الحياة سيار ، والدنيا بأهلها تتجدد ، وإذن يستبين للأمة أن هذه الفكرة قد أدركتها الشيخوخة ، ونال منها الإعياء ، ولم تعد فيها بقية تلاحق بها الوعى الحاضر ، فتعلن الأمة عليها نقمتها فى رفق أو عنف ، وتستبدل بها فكرة جديدة تلائم العهد الجديد . وهكذا دواليك ، حتى يقوم الناس لرب الناس ! ...

فكرة الأمس التى هرمت اليوم وأعيت ، كانت لها قيمتها حين نجمت ، وإن عجزها اليوم عن مطاوعة العصر الراهن ليس دليلا على أنها فكرة تافهة ، فقد أدت فى ماضيها وظيفة اقتضتها الأحوال والملابسات ، واستلان لها قياد النفوس ، ولو لم تكن موائمة للزمن السالف لما عاشت فيه . ولو لم تكن مسايرة لشعور الجماعة

لما استطاعت أن تمكث فى الأرض — ومن ينظر إليها فى حاضره نظرة زراية وتحقير كمن ينظر شزراً إلى شيخ قوست ظهره السنون، ومشى يتوكأ على عصاه، كأن لم يكن هذا الشيخ وافر الفتوة ناضر الشباب، فى عهد طوت صفحته الأيام !...

مخطىء من يدير فى خلده أن فكرة جديدة مما يستحدثه العصر الحاضر كان من الممكن أن تحيا فى العصور الخالية، وأن تكون أصلح لها مما شاع فيها من فكرات، فكل فكرة تحدث هى بنت العصر، وهى وحى البيئة، وجوهر قيمتها أنها تخدم مجتمعها الذى نبتت فيه، وتبلغ غرضها الذى هدفت إليه !...

أى سمع لا ينبو اليوم عن كلمة « الاسترقاق » ؟... وأى شعور يستطيب اليوم استعباد الإنسان أخاه الإنسان ؟ ... ألسنا نرى فى ذلك ضربا من الوحشية تأباه الكرامة البشرية ؟... أو لسنا نعد افتئاتا على الحق الطبيعى وخروجا على العدالة والمساواة ؟ ... ولكن التاريخ فى أسانيده القويمة يثبت لنا أن هذا الاسترقاق البغيض كان فى عهود سوالف من العمد الوطيدة للأنظمة التى قام عليها صرح المجتمع القديم، وبفضل الاسترقاق تقدمت البشرية خطوات فى سبيل العمران ردحا من الزمان . وكذلك الدراسة الفلسفية للطبائع البشرية والمجتمع الإنسانى تنقل إلينا أن بعض

فلاسفة الواقعية — وعلى رأسهم المعلم الأول « أرسطو » — كانوا يرون أن الطبيعة فيما ترمى إليه من البقاء هى التى خلقت بعض الكائنات للإمرة وبعضها للطاعة ، فمن الناس عبيد بحكم الطبع ، والرق فى حقهم نافع بقدر ما هو عادل . فأين تقع من نفوسنا اليوم فكرة الاسترقاق ؟ ... وأين تنزل من عقولنا اليوم فلسفة الرق ؟...

الضرورة الاجتماعية ، والمناسبة الحاضرة ، هما اللتان تفسحان للفكرة الجديدة فى الصدور ، والإنسان يتأثر بها فى حياته ، ويتطور معها فيما يلابس من عيشه . ولكنه مع ذلك يؤثر فيها ، فما يزال بها حتى تكون من غرائزه وأهواء نفسه على وفاق .

على موقد الزمن — فى سيره الحثيث ، وضرامه المحتدم — قِدْر كبيرة للطهو والإنضاج ، فيها تنصهر كل فكرة جديدة ، حتى تكون مستساغة صالحة تؤكل وتهضم ... إنها قِدْر الحياة ، والطاهى الأكبر هو الإنسان ، هو ذلك الفرد الذى يتألف من أمثاله مجموع الأمة ، تقهره طبيعته البشرية التى هى مزاج من سمو وتهافت ، ومن قوة وضعف ، ومن مثالية وواقعية ، فيعمل ما وسعه أن يعمل على أن يكون طعامه طبيعياً يستطيع أن يزدرده ، وأن يحيله مادة تغذوه وتنميه !...

كثيراً ماتتخذ الفكرة الجديدة فى باكورة أمرها صبغة مثالية رفيعة تنأى بها عن طبيعة البشر ، ومن ثم ينشب النزاع بين الفكرة فى مثاليتها ونفسية الإنسان فى شتى غرائزه ، وإنها لمعركة حميدة تنجلى عن الفكرة وقد نالها شيء من التشذيب والترويض ، متأثرة بواقعية الطبع البشرى ، كما تنجلى عن النفس الإنسانية وقد أفادت شيئاً من الصقل والتهذيب ، متأثرة بما للفكرة من مثالية عالية . وإذن تخطو المدنية فى سبيل الحق والعدل والخير ، خطوة جديدة لم تكن سجلتها لنفسها من قبل ! ...

ولعل أكبر العوامل على تطور « الفكرة » وتطور النفسية البشرية معها ، هو ميدان التجربة ، وإنه لميدان يختلف باختلاف البلاد والبيئات والملابسات ، فلكل أناس مشربهم ، ولكل قوم طاقتهم فيما يأخذون وما يدعون من أنظمة وشرائع ، محكومين بما ورثوا من عرف وتقليد ، وما يحيط بهم من أسباب العيش ومرافق الحياة .

حسب « الفكرة الجديدة » — وإن تطرفت فى مثاليتها — أن تنطوى على عنصر صالح ، وأن يكون جوهرها صحيحاً لا زيف فيه ، حسبها أن توائم نفسية الشعب فى مجموعه ، وأن تكمن فيها بذرة النفع وروح الخير ، فذلك قوامها الذى يكفل لها

البقاء والاستقرار ، فأما تفصيلات الفكرة — فى نطاق تنفيذها — فإنها رهن التجارب وطوع المقتضيات والأحداث .

ومن الغفلة — بل من الغباوة — أن يدعو التزمت والمحافظة إلى التنكر «للفكرة الجديدة» وأن تعد من الطوارىء الدخيلة التى يجدى فيها التجاهل والإغضاء ، فالفكرة حين تحدوها الدوافع الطبيعية على أن تحيا وتزدهر ، جديرة أن تعان على أداء رسالتها فى المجتمع ، وأن تستقبلها الصدور بترحاب وتأييد . ومن قصّر فى ذلك فهو فى حق نفسه آثم ، وعلى نفسه يجنى ، إذ يتخلف عن الركب السيَّار ، فأما «الفكرة» فما دامت صحيحة الجوهر ، خالصة لخدمة المجموع فإنها تمضى وتمضى ، لا تصدها عن الغاية عوائق الطريق ،

الشاربُ الذى حكَم إمبراطوريّة ...

كما يكون ظهور العظيم وسطوع نجمه مثاراً لأفكار وخواطر، تكون وفاته وانطواء صفحته كذلك مثاراً للخواطر والأفكار، فهيهات أن يموت عظيم فى أية ناحية من نواحى الحياة إلا تبعته من نفوس الناس مناجيات وتأملات، لعلها أوفر حظاً من الصدق والحق، وأخلص جوهراً من الحفيظة والرياء ! ...

مات منذ قليل زعيم « روسيا » الكبير « جوزيف ستالين »، فلم تكد أسلاك البرق تهتز بنبأ رحيله، حتى أصبح الحديث عنه شغلا شاغلا لكل من يتدبر أمر هذا المجتمع البشرى فى الكون العريض، فما كان «ستالين» إلا رجلا من أفذاذ العالم الذين يديرون دفة الحكومات والدول، ويهيمنون على مصاير الأمم والشعوب !.

وربما كان أول ما يسبق إلى الخاطر فى هذا النبأ أن يسأل المرء نفسه : أ كان موت زعيم «السوفييت» فى الوقت الذى يجمل به أن يموت فيه ؟... أم استأنى به الزمن بعد وقته ؟... أم عجل به بعض حين ؟...

الوقت الذى يعينه القدر لنهاية الحى ، له أبلغ الأثر فى تقدير مكانة ذلك الحى ووزن قيمته وعمله ... فالسعيد حظه من كتب عليه الموت فى الوقت الذى يجب أن تنتهى حياته فيه ، وينقطع عنده عمله ، ليدخل حسابه بعد ذلك فى ذمة التاريخ !...

كثير من النبغاء الذين أسفرت بواكير نبوغهم فى عصر الشباب ، لم يمهلهم القدر القاهر ، فمضوا منقوصى الحظ من تمجيد وتخليد ، ولعل الأسوأ منهم حظاً أولئك العباقرة الذين بهروا أزمانهم بالمعجزات ، ولكن تراخت بهم الآجال ، فلبثـــوا فى حياتهم يواصلون العمل والإنتاج ، بيد أنه إنتاج هزيل لا يلائم المكانة التى تبوءوها من قبل ، فزحزحوا عن مكانتهم ، وانطمست شهرتهم ، وكان الموت لهم ساتراً لو دنا منهم مناله !...

منذ عهد مضى قدم « مصر » الكاتب الفرنسى العظيم « أندريه جيد » فدعى إلى أن يسجل حديثاً يرسله المذياع ، فلم تكد الأسماع تصغى إليه حتى استشعرت له هزة أسف وإشفاق ، ويروون عن الرجل أنه هو نفسه ما سمع حديثه فى المذياع حتى أخفى وجهه بين يديه ، وهمهم فى حسرة :

شدّ ما نالت من عقلى السنون !...

ومن يوازن بين مؤلفات الكاتب الروسى الكبير «تولستوى»

يرى البون شاسعاً بين آثاره فى أوج فورته وإبان نشطته ، وآثاره حين علاه الكبر وأدركه الكلال . فقد كان فى عهده الأول كشافاً عن الطبع الإنسانى الخالد ، يستوحى غرائز البشرية الباقية ، ثم انقلب فى عهده الأخير خطيب منبر ينشد الوعظ والإرشاد .

ولقد سئل الكاتب الأرلندى « برنارد شو » رأيه فى أديب معاصر كان وقتئذ على قيد الحياة ، فأجاب فى سخريته المأثورة عنه :

مبلغ علمى أن هذا الأديب مات منذ عشر سنين ، ولكنه لم يدفن بعد !...

فهل أحسن القدر بزعيم الروس « ستالين » فهيأ له منيته فى الوقت الملائم له ؟...

بديه أن يتضارب الناس فى الجواب عن هذا السؤال .

خصوم الرجل يرونه قد تأخر به حينه ، حتى غلبه المرض على أمره ... فهم يحملونه وزر ذلك القلق السياسى الذى أطبق على العالم فى الفترة الأخيرة . وعندهم أنه كان يتقمص فى شخصيته عقلية موطنه الأصيل « جورجيا » ، وما يتصف به أهل هذا الموطن من إمرة واستبداد ، شأن الحكام الشرقيين الأول . وإذا كانت صفات هؤلاء الحكام قد أفادت الزعيم فى مستهل الثورة الروسية فإنها غير صالحة لمسايرة العصر فى حكم الشعوب ، منافية لما يجب أن يكون

عليه توجيه السياسة الدولية فى العالم كله ! ...

وأما أشياع الرجل ومريدوه ، فهم يتحسرون على أنه قضى قبل أن يتم مهمته فى إقرار الوضع الاقتصادى المرسوم، وكانوا يرجون أن يطول عمره حتى يتم له تعميم ذلك الوضع ، فى أرجاء المعمورة، بأسلوبه العجيب ، ذلك الأسلوب الذى كان مزاجا من : وعيد ، وإغراء ، ودهاء ! ...

وثمة رأى ثالث ينادى بأن الرجل قد مات فى إبانه ، لم يستقدم ساعة ولم يستأخر . فقـــد اضطلع بواجبه فى نشر مذهبه ، وفق مقتضيات بيئته ، وملابسات عصره ، فأما وقد تغيرت النظرة ، وتبدلت الحال ، فلزام عليه أن يفسح لغيره الطريق ! ...

والذين يرون هذا الرأى يتساءلون :

أليس من الخير لذلك الوضع الاقتصادى الذى كان من رواده «ستالين» أن يتبناه اليوم زعيم جديد يباين الزعيم الراحل فى خطة حكمه ، وأسلوب معالجته للمشكلات؟...أليس حقاً على هذا الزعيم الجديد أن يخرج بذلك الوضع الاقتصادى عن الدائرة المضروبة عليه ، وأن يتخذ له طريقاً آخر يوائم روح العصر ؟...

هلا أخبرنا الزعيم الجديد : هل من جديد ؟...

وكيف لنا أن نرغب إلى الزعيم فى أن يصارح بما فى نفسه ،

والساسه إلى الكتمان أقرب ، وعليه أحرص ؟ ...

ومالنا لا نستطاع صورة الزعيم الراحل ، وصورة ذلك الذى خلفه على الزعامة ، عسى أن تهدينا السمات والملامح إلى استشفاف المكنون ؟...

أول ما يطالعنا من وجه الزعيم الراحل : شاربه !... فلنأخذ به ، فلطالما كان الشارب — فى عصور الشوارب واللحى — أصدق عنوان على مزاج الرجل ، وما له من طبع مكين !...

هذا شارب « غليوم الثانى » ، والعهد به غير بعيد ، لقد كان شارباً ممتلئاً ملتمعاً مسنون الأطراف ، يكاد فى تشامخه يتخذله سبباً إلى السماء ، وإنه ليمثل « ألمانيا » فى مظهرها الحربى الغابر ، نزّاعة إلى السيطرة والتملك، تعتاج بين جوانحها عنجهية وعناد، وما إخالك تغلو إذا قلت بأن هـذا الشارب هو المسئول الأول عن الحرب العالمية الأولى ، وما خلفت من محن وويلات .

وهل يذهب عن الذاكرة شارب « جنكيز خان » أو شارب «نابليون الثالث» إلى غيرهما من شوارب ، كان إليها مرد ما لقيت الإنسانية فى مختلف الأحقاب من أرزاء الحروب ، ولو أنعمت النظر فى كل شارب منها لبان لك أنه يحمل طابع صاحبه ، ويكشف عن طوايا شخصيته .

لم يكن شارب زعيم « روسيا » الراحل يشذ عن هذه القاعدة بل إنه يزيدها دعماً وتوطيداً ... فهو شارب غليظ متهدل ، لا يمسه التشذيب ، تتشعث أطرافه فى ثورة وحنق ، وهـــو بذلك رمز واضح لشخصية « العامل » الروسى القديم ، شخصية «البروليتارى» الأصيل ، ذلك الذى شقى بحكم القياصرة ، وكابد عهد الإقطاع !...

ولعل السر فى احتفاظ الرجل بشاربه ، وأنه لم يفرط فيه ، ولم يغير شيئاً من وضعه وشكله ؛ — أن « ستالين » ظل وفياً لمبادئه البروليتارية ، لا يحيد عنها قيد أنملة ، فأنت تستطيع أن تقول بأن «العامل» الروسى القديم بكل خصائصه متمثل فى ذلك الشارب الشّمرود ، فهذا « العامل » هو الذى كان يحكم « روسيا » فى إهاب الزعيم الراحل « ستالين » !...

ليست خصائص « العامل » الروسى القديم بخافية ... فهو ذلك المجهود المنكود ، الذى استبطن الطغينة المتغلغلة للحكومة الرأسمالية الطاغية الباغية : سلبته كل ماله من حق ، وأذاقته الجوع والخوف والتغريب ، واتخذته المظالم هدفا لا يملك لنفسه دفعا ...

كانت خصائص ذلك العامل الروسى القديم هى الضوء الذى استهدى به « ستالين » فى سياسته ، متخذاً من شاربه رقيباً على نفسه ... فإن كان ثمة مسئول عن هذا المنهج الذى سار عليه الزعيم الراحل ،

فى معالجة شئون بلاده وغير بلاده ؛ — فليس هناك إلا شارب « ستالين » ! ...

فإذا ألقيت نظرة على صورة الزعيم الجديد الذى خلف الزعيم الراحل على زعامة الروس ، رأيت وجهاً ممتلئاً مستديراً أمرد ، عليه ملامح هادئة ، وإن تكن فى نظرته عزمة ومضاء ... هذا الوجه يدلك أول مايدلك على حياة التشبع والرخاء والاستقرار ، وإنه لرمز واضح لذلك « البورجوازى » الروسى فى عهده الجديد ونظامه العتيد ! ...

ترى هل يكون لهذا « البورجوازى » الاشتراكى أثر فى توجيه السياسة وأصول الحكم ؟ ...

وهل حان أن يطالعنا وجه جديد لذلك الوضع الاقتصادى الروسى الراهن ؟...

مهما يكن من أمر ، فلابد أن خليفة « ستالين » يصبو إلى أن تكون له زعامة حقة ، ولاريب فى أن الزعامة الحقة تتطلب الأصالة والابتداع . فهى توزن بما يكون فيها من جدة وتألق ! ...

الزعيم الحق هو الذى يشق الأفق البكر ، ويشرع المنهج الجديد ، فأما وفاء الخالف للسالف ، وارتسام الطريق فى غير حيدة ، فما هو إلا محاكاة وتقليد . والزعامة فى جوهر معناها ثورة على

المحاكاة ، وانتقاض على التقليد ! . . .

على أن المذاهب الاجتماعية لا يكون لها البقاء إلا حيث يتعاورها التطور والتجديد ، فكل مذهب جامد مقضيّ عليه بالاضمحلال والزوال ، وتلك حقيقة لا يقتصر حكمها على المذاهب ولكن يشمل كل كائن حيّ وكل نظام مفروض ، فالابن إذا لم يضف جديداً إلى مجد أبيه ذهب اسمه أدراج الرياح ، والتلميذ إذا لم يزد على منهج استاذه كان غير جدير بالذكر ! ...

الحكمة الإنسانية تقضى بأن حجة الأمانة والمحافظة على التراث المأثورة حجة ضارة ، بل زائفة ، حين يراد بها استبقاء نظام عهد مضى لعهد جديد ... فالأمانة هنا ضرب الخيانة ، والمحافظة هنا مؤدية إلى الضياع ! ...

العالم اليوم يشخص بنظرته إلى خليفة « ستالين » وهو يتربع على كرسى الزعامة فى تلك الامبراطورية الضخمة ، وإنها لنظرة تتساءل :

أيكون الخليفة الجديد زعيما حقاً له طابعه الخاص وشخصيته المستقلة ، فى معالجة الأمر وتدبير السياسة ؟ ...

أم يكتفى بأن يلتمس له فى ذلك الإطار القديم مكاناً يسكن إليه ، حيث ينبسط عليه من الزعيم الراحل ظل يخفيه ؟! ...

فلتبق المشنقة !...

لا تكاد تعرض مناسبة قريبة أو بعيدة حتى يتجدد الحديث عن عقوبة الإعدام ، فيطالب بإلغائها فريق ، ويتصدى للدفاع عنها فريق آخرون !...

ولا ريب أن المطالبة بإلغاء هذه العقوبة تبدو أول وهلة طيبة الموقع من النفس ؛ لأنها استجابة لدافع إنسانى نبيل .

أنتولى بأيدينا حرمان الإنسان حق الحياة ، وهو حق مقدس ، نبذل فى سبيله أقصى الجهود ، ونصونه بمختلف ألوان الرعاية والإعزاز ؟...

أنمارس جريمة القتل ، وهى شريعة الغاب ، حيث يتحكم سلطان الغريزة الضارية ، ويتغلب روح الانتقام الأثيم ؟...

وهذا المجرم المحكوم عليه بالإعدام ، أليس يعانى من العذاب النفسى والجسمانى مالا يليق بمستوى تفكيرنا الاجتماعى الرفيع ؟...

ومن هو ذلك المسوق إلى المشنقة ؟ ... أليس هو إنساناً

مريض النفس ، ضيق الأفق ، تدلى إلى الدرك الأسفل من اقتراف جريمة القتل البشعة ، تحت وطأة الملابسات المحيطة به ، فكيف يكون التشريع السليم ضيق الأفق مثله ، يسايره فى بشاعة جرمه ؟ ... وكيف يلى قتله قضاء هو المثل الأعلى لحصافة الرأى ، وسمو القصد ، وحكمة الاعتدال ؟...

كل هذا حق ، ولكن الشريعة التى يراد لها أن تحكم البشر يجب أن تكون شريعة واقعية تستمد من البشر طابعها الأصيل ، فلو اصطنعنا لهذا المجتمع شريعة ملائكية لما صلحت له ، بل لفسد المجتمع بها أيما فساد ! ...

انظر إلى هذا المجتمع البشرى نظرة عميقة ، تؤمن بأن القصاص طبيعة فيه ، وأنه نظام يسوده فى مختلف شئونه ، ظاهرها وخافيها ، وأكاد أقول بأن هذا القصاص طبيعة للكون كله لا تتحول ، نظام لا يتخلف ، وصدق الله : « ولكم فى القصاص حياة » ! ...

فالإسلام حين أقر القتل بالقتل إنما أقره لأنه شريعة من السماء تراءت فيها فطرة الخلق وطبيعة الإنسان ! ...

بيد أن الشريعة الإسلامية حين تطابق الواقع البشرى ، وحين تلائم النفس الإنسانية ، لا تقف جامدة إزاء أحلام التطور الاجتماعى ، ولا تعيا عن متابعة درجات السمو الفكرى ، فإن

فيها من المرونة والطواعية ما يتيح لها البقاء ، وما يجعلها شريعة كل زمان ومكان !...

ليس ذنباً للشريعة الإسلاميه أن يتجافى ورثتها عن سننها الواضح ، فإذا هم يَحْجُرون الواسع . ويغلقون على أنفسهم باب الاجتهاد ، ويردون النصوص إلى موقف جامد فى الفهم والتوجيه .

لقد أقر الإسلام مبدأ القتل بالقتل، للردع والترهيب، مراعياً ما فطر عليه الناس من غرائز لابد من مواجهتها لصلاح المجتمع ، ولكن الإسلام حين يضع المبادئ القويمة يترك تنفيذها مجالا ذا سعة وحسبنا القاعدة التى تقول : ادرءوا الحدود بالشبهات . فالمشرع العادل جدير إذا أن يحيط العقوبة الصارمة بما يجعل استعمالها محصوراً فى أضيق المجالات ، وأن يشترط لتنفيذها ما يحقق المصلحة العامة ، وما يدارج الوعى الاجتماعى !...

أجدى علينا إذن ألا نمس هذا المبدأ الحق ، مبدأ القتل بالقتل فإننا فى طوايا أنفسنا نعتقد أنه هو العدل ، وفى مستطاعنا أن نحد من غلوائه ، وأن نضيق دائرة الحكم به فى التطبيق ، وبذلك نلائم بين شعورنا الدينى والبشرى نحو عدالة القتل بالقتل ، وبين ما يهفو إليه تفكيرنا الاجتماعى فى معالجة المجرم ومكافحة الإجرام .

ليست عقوبة القتل بالقتـــل وحدها هى التى يتحد ث بعض

الناس عن قسوتها وصرامتها ، وينادون بإلغائها ، فثمة فى الشريعة الإسلامية أحكام تدور حولها الأحاديث وتتنازع الآراء ... هنالك مثلا إباحة الطلاق ، وإباحة تعدد الزوجات ، فقد طالما نعى الناس على الطلاق أنه يهدم الأسرة ، وعلى تعدد الزوجات أنه جر إلى شر اجتماعى وبيل .

وفى معتقدى أن الشريعة حين أباحت حق الطلاق ، وحق تعدد الزوجات ، إنما أباحتهما بشرط أن تتوافر لها المقتضيات . فشأنهما شأن العقاقير السامة لا تؤخذ إلا بقدر ، ولا تباح إلا حين لا يكون منها بد ... إننا نتناول من العقاقير ما يسميه الأطباء « المضاد للحيوية » أو « مبيد الحيوية » ، وهم مع ذلك يصفونه لنا فى بعض حالات المرض لكى تصح لنا الحياة ! ...

ربما كان أمر من الأمور فى ذاته حقاً مباحا ، ولكن القضاء الحصيف يعد هذا الحق المباح باطلا صراحا إذا أسىء استعماله . ومن ثم يتعين الحكم بإلغائه ... ونحن فى أحكامنا الإسلامية قد أسأنا استعمال كثير من الحقوق ، فاشتبه أمرها بالباطل ، وأسرعنا إليها نعيبها جاهدين ، والعيب فى التطبيق لا فى التشريع ! ...

ما أحوجنا اليوم إلى أن نعيد النظر فيما توارثناه من أحكام شريعتنا الإسلامية ، لا نقف عند النصوص المجردة ، ولا نكتفى

بالتفسيرات المتناقلة ، بل نفحص ونمحص ، حتى نحقق لكل حكم ما يكفل له دقة التنفيذ ، وسلامة التطبيق ، مستهدفين بروح الشريعة، في إقامة مجتمع رشيد ! ...

لاخير لنا فى أن يفتننا بريق الأوضاع المستحدثة التى ترد إلينا من بعيد ، فنقلدها فى غير تبصر ...

ولا خير لنا كذلك فى أن نصدم مشاعر الناس بما يشككها فى قدس الشريعة ، وبما يمس أصولها الراسخة ...

وإنما الخير فى أن نعمق نظرنا فى تلك الأصول التى هى من وحى الفطرة البشرية ، ومن صميم وجودنا الطبيعى ، وأن نطوعها لما تمخضت عنه عقلياتنا وتجاربنا فى مجتمعنا الحديث ! ...

وإذن يمضى ركب الإصلاح ، آمنا من عثرات الطريق ...

فلنفرض !...

كنت وأنا رخيّ البال ، أنعم بسابغ من الطمأنينة ، مشغوفا باقتناء ما يصدر من هذا اللون من الكتب التى شاع أمرها ، وفتن القرّاء بها ، وتهافتوا عليها ... أعنى تلك الكتب التى تبسط ما يشقى به الناس من وساوس وأوهام ، وتعالج ما يعانون من هموم وأشجان . وتهديهم إلى حياة جديدة مستبشرة كلها رَوح وريحان ! ...

وكان يروعنى أيما روعة ما تزخر به تلك الكتب من أساليب عملية بالغة الطرافة ، وما تسلم إليه من نتائج بارعة فذة ، فإذا بكتائب الهم والقلق تلوح لى مدبرة تلوذ بالفرار ، وإذا بهؤلاء المهزومين التعساء من عباد الله كأنما قد انجابت عنهم المحنة ، وانزاحت الغمة ، وغدوا ناشطين للسعى ، مقبلين على العمل ، ويحدوهم أمل وضىء بسام ! ...

لقد آمنت إيمانا لا يخالجه الريب بأن أولئك الجهابذة من

علماء النفس ورجال الفكر قد أنزلوا بهذا « القلق » المسكين
وجيع الضربات ، فقصموا ظهره ، حتى لاتقوم له قائمة من بعد...
فحمدت الله على أن البشرية قد تخلصت من ذلك العدو اللدود ،
وأن المجتمع اليوم قد أتيح له من الوسائل والأسباب ما يكفل له
الهناءة وراحة البال ! ...

لبثت على هذا الاعتقاد حيناً من الدهر ، وأنا من حياتى فى
طمأنينة وأمن ، إلى أن نزلت بى يوما نازلة دهياء ، فألفيتنى بين
عشية وضحاها بطلا مغواراً من أبطال الهم ، وغطريفاً عظيما من
غطاريف القلق ! ... فتذكرت من فورى تلك الذخيرة النفيسة
من كتب علاج النفس ، ومقاومة اليأس ، وفزعت إليها أنشد فيها
بلسما لما أجد ، وعكفت عليها ألتهم صفحاتها التهاما ، لعلى أجد
بين ثناياها عونا ونجاة ، فى ساعة عز فيها كل سبيل إلى العون ،
وانقطع فيها كل سبب إلى النجاة ...

وما برحت هائما فى صحائف تلك الكتب ، أتمعن وأتفهم
وأتفطن ، حتى انتهى بى الأمر إلى أن طويت الصحائف فى حنق ،
ونحيتها عنى فى جزع ، ورحت أتساءل وقد اشتدت بى الحيرة :
لمن كُتبت هذه المؤلفات ؟ ... أكتبت لصرعى الهموم حقاً
ممن ضاقوا بالحياة ذرعا ؟ ... أم كتبت لمن لم يعرفوا للقلق

طعما ، ولم تدهمهم فى الحياة نازلة ؟...

ولم يغننى التساؤل شيئاً ، بل لقد تفاقمت المشكلة فى رأسى ، وازدادت من تعقد ، وأخذت تنفث سمومها فى كيانى ، لتضاعف من هواجسى ، وأنا ماثل حيالها فى عجز وصغار ...

ونهضت أذرع الحجرة ، منسرح الفكر ، أحدث نفسى :

لمَ لا أحاول بوسيلة من وسائلى الخاصة أن أحل مشكلتى ؟...

لمَ لا أعمل الرأى جاهداً فى استنباط دواء جديد للهم والقلق ، لم يهتد إليه قبلى أولئك المفكرون الأفذاذ ؟...

وملكتنى غيبوبة صوفية عميقة ، وامتدت بى وقتاً لا أعرف مداه ... فلما ثاب وعيى إلىّ ، ألفيتنى أتصايح فى تهلل :

لقد وجدته ! ... لقد وجدته ! ...

نعم ، لقد اهتديت إلى « الإكسير » الشافى من كل لون من من ألوان الهم والقلق ، فلا بقاء اليوم لحيرة أو اضطراب ... لقد عثرت على « مفتاح السعادة » ... على « خاتم سليمان » ... على « كلمة السر » التى لا تكاد الشفتان تلفظانها حتى ينفتح الكنز الثمين ! ...

لقد كسبت الجولة ، وفزت بكأس البطولة ، وأصبحت قميناً بأن أتيه على من سبقونى من عباقرة الفكر ! ...

هأنذا أنادى كل منكوب مكروب من صرعى الهموم والأحزان ، لآخذ بيده إلى شاطىء الطمأنينة والأمان ! ...

فيا أخى فى البأساء ، ويارفيقى فى البلية : إليك أسوق الحديث ، فأرهف سمعك لى وتفهم ما أنا قائله لك :

اعلم ـ علمت الخير ـ أن الله قد مهد لك طريق النجاة على يدى، وأنى منقذك من « جحيم » عيشك ، هاديك إلى « جنة » دنياك ، لتنعم بصفو الحياة ...

إن هى إلا كلمة أسديها إليك ...

كلمة واحدة لا غموض فيها ولا التواء ...

كلمة يكمن فيها سر الحياة الحافلة بالهناءة الحقة ...

لكأنى بك متواثب النظرات على هذه الأسطر ، لتقع عيناك على كلمتى الموعودة .

لا تتعجلنى وأمهلنى قليلا ، فالله مع الصابرين !

قبل أن أهمس فى أذنك بهذه الكلمة السحرية الشافية ، يطيب لى أن أؤكد لك أنها لن تكلفك عناء ولا نصباً ، وأنها لا تمت بصلة إلى نظريات علم النفس ، ووصايا علمائه النابهين ...

ليس ثمة من تمرينات مرهقة ، تبتغى بها الإيحاء الذاتى ... تمرينات تريدك على أن تقف حيال المرآة صباح مساء ، فإذا أنت ألعبان

جدين بالعمل فى ملاهى التهريج ...

ليس ثمة من جعجعات أو ترهات أصبها فى أذنيك ، فتدفع بك إلى الغوص فى أعماق ما يسمونه « العقل الباطن » — بدعة العلم الحديث — لتفتش فى المسارب والمعاطف والليات من العقد المستخفية ، والقوى المحتبسة ، قابعة فى قماقمها المختومة ، ترتقب مقدمك ، لتفك عنها قيود السحر ، وتطلقها من عقال الأسر ، فتمضى بك جبارة عاتية تصنع المعجزات ...

لا تحسبنى أدعك تتورط فى تلك المتاهات والمزالق ، فإنما أنا مبعوث العناية الإلهية لكى أحميك من حماقات العلماء، وأحفظ عليك كرامتك الإنسانية من مزاعمهم المسرفة ، ولكى أهدى أليك أثمن ما فى الوجود ، كلمتى الخالدة ، نصيحتى الرائعة ، أمنيتك الغالية التى تهفو إليها منذ عهد بعيد ! ...

أراك ناشراً أذنيك ، مشرئباً بعنقك ، تتأهب لتلقف تلك الكلمة السحرية حين ألقى بها إليك ...

هاك كلمتى :

« فلنفرض » ! ...

كلمة « فلنفرض » !... فقط ! ...

« فلنفرض » ! ... وكفى ! ...

تلك هي كلمتي أجهر بها مجلجلة مدوية ...

أراك قد فغرت فاك من عجب ، وكأن عينيك تنهبانني في تساؤل .

أنت محق في تساؤلك وفي تعجبك ! ...

إنك تطالبني بالمزيد من الإبانة والإفصاح ! ...

لا يخيب مطلبك عندي ...

سأبسط لك شكولا من أمثلة تجد فيها ما يشفي الغليل ...

* أنت يائس ، أخفقت في امتحانك المدرسي ، فأظلمت في وجهك الدنيا ، واعتزمت أمراً جللا ...

إنك تواجهني بقولك :

سأنتحر ! ...

— ولمَ تقتـــل نفسك يا بني ؟ ... أما كان من المحتمل أن تمرض ، فيحول المرض بينك وبين أداء الامتحان ؟ ...

— هذا محتمل ! ...

— إذن « فلنفرض » أنك — عافاك الله — قد مرضت بالحمى المخية الشوكية . ففقـــدت النطق ، ولزمت الفراش بلا حراك ، ففاتت عليك فرصة الامتحان هذا العام ! ...

* وأنت زوجة ضجرة ، ساءك أن يتعطل زوجك العائل ، وأن تنضب موارده ، وأن تضطرب لذلك حاله ، وقد كان فيما سلف

مطمئناً إلا عمله ، يكسب الكثير من المال ! ...

إنك تسبين الدهر ، وتسبين زوجك معه ! ...

اسمحى لى أن أسألك :

لو أن زوجك — أطال الله بقاءه — فاجأته المنون ، فانقطع بذلك سعيه ، أفكان ذلك أجدى عليك من تعطله بعض حين ؟...

— كلا ! ...

— إذن ، فلنفرض ، أن زوجك ، لا حرمك الله ظله ، قد طوته غياهب الآخرة ، فأصبح فى تعطل أبدى ، أليس جديراً ، وهذه حاله ، بالموفور من عطفك وحنانك ؟...

* وهذا رجل جهم الملامح ، يمشى إليك ثقيل الخطو ، حتى يمثل بين يديك ليقول :

أنا فى يأس من أمرى ؟...

فتبادره بسؤالك :

وفيم يأسك ياصاح ؟...

— إنى رجل سوء ، لئيم الطبع ، سريع إلى الأذية والشر أعهد ذلك من نفسى ، وأعترف به ... ولقد ضقت بذلك كل الضيق ، واجتهدت فى أن أسلك سبيل الاستقامة ، وأنحو نحو الخير فلم أوفق ... فماذا ترانى أصنع ؟...

— هون عليك !... فالخطب أيسر من أن يدعوك إلى اليأس ! . . .

— كيف ؟...

— اعلم يا صديقي أن صفاتك التي تنكرها من نفسك ، ليست إلا بعض صفات « إبليس » ... « فلنفرض » أنك « إبليس » عينه ، تسرح وتمرح ؛ لتفسد في الأرض ...

— أنا « إبليس » ؟... أنا ؟...

— كذلك أرادت لك الأيام أن تكون ، وهذا حظك من الدنيا ... فلتكن « إبليس » كرهت أو رضيت !...

* وذلك رجل يشكو امرأته جهد الشكوى ، فيقول لك في لهجة مريرة :

إن زوجتي لا تلقاني إلا مزمجرة كاشرة ؛ كأنها لبؤة تريد أن تنقض عليّ ، فلو كان لها أنياب لافترستني ، ومزقت جسدي إرْبا إربا ...

لك أن تقول لمحدثك على الفور :

إذن « فلنفرض » أنك تزوجت لبؤة حقاً ، لبؤة ضارية من البوادي والقفار ، بيد أنها بلا أنياب !...

— كيف « أفرض » ذلك وزوجتي إنسان مثلي ومثلك ؟...

— يا سيدى « فلنفرض » ... لماذا لا تتمثل نفسك قد خرجت إلى الصيد والقنص فى فلاوة موحشة ، فتصدى لك أسد لم تقو على مصاولته ، وهم أن يفترسك ، فتضرعت إليه أن يخلى سبيلك ، فرضى أن يهب لك حياتك على شرط ...

— أى شرط ؟...

— أن تتزوج لبؤته ، لينجو مما تتعمده به من قحة وإيذاء ...

— هذا حديث خرافة ... هذا غير معقول ! ...

— «فلنفرض » أنه معقول ... كل ما هو غير معقول يغدو معقولا فى مجال الفرض والتخمين . . . توكل على الله ، وقل « فلنفرض » ... واحمد الأقدار على أن زوجتك ليست لها أنياب الوحوش ! . . .

* ودونك أخيراً رفيقاً لك يبدو متذمراً يتسخط ، فتسأله : مالك ؟... كفى الله الشر ! ...

— لقد عييت بأمرى ...

— لماذا ؟ ...

— أحس بأنى أعيش فى « الجحيم » ...

— أليست لك خطايا وذنوب ؟...

— لا يخلو امرؤ من الخطايا والذنوب ...

— إذن « فلنفرض » أنك انتقلت فعلا إلى « جهنم » الحمراء وأنك تقضى فيها حقبة التفكير والمتاب !

لقد سقت لك أمثلة ناصعة تستعين بها على فهم « فلسفتى » الجديدة ، وهنالك عشرات سواها بل مئات ، وإنك لتستبين منها أن ليس ثمة مشكلة فى الحياة يستعصى عليك حلها ، إذا عالجتها فى ضوء تلك الفلسفة العملية الراشدة ...

هل آمنت بقولى ؟ ...

أقرأ على ملامح وجهك مخايل الشك ، وأسمعك تغمغم :

إن فلسفتك الجديدة — فلسفة « فلنفرض » — لا تمثل إلا روح الهزيمة والخنوع ، روح الاستسلام للأمر الواقع ! ... إنها فلسفة انهيار وفناء ، لا فلسفة نماء وبقاء ! ...

هذا قولك ، فكن صريحاً فى إجابتك عن سؤالى الذى ألقيه عليك :

أأنت حقاً تؤثر لنفسك العافية والبقاء ؟ ... أم تتعجل لها الانهيار والفناء ؟ ...

— أريد البقاء طبعاً ! ...

— إذن فلا سبيل لك إلا أن تتخذ من فلسفة « الفناء » سبباً

إلى بقائك على ظهر هذه الدنيا ، تنعم بالحياة وصحبة الأحياء !...

نصيحتى إليك يا صديقى أن تكون فلسفة « فلنفرض » نبراساً لك ، يكشف الظلمة عن نفسك ، وينقذها من الحيرة والتيه !...

ليس أمامك إلا « الفروض » و « التخمينات » تتخلص بها من حاضر القلق ، وتزجى بهاواقع الهم ، وتصنع منها دنيا جديدة لك ... دنيا من نسج التغافل والإغضاء والهرب ، تتسامى بها على دنياك الحائقة بك والمطبقة عليك ...

ضع يدك فى يدى ، ولنصح معاً بأعلى صوت :

فلتحى فلسفة « فلنفرض » !...

فلنفرض !... أيضاً !...

لا تحسبني كنت هازلا أو عابثاً حينما تحدثت إليك عن فلسفتي الجديدة : « فلسفة فلنفرض » !...

لقد نصحت لك يا صديقي القارىء أن تكون فلسفة « فلنفرض » نبراساً لك ، يكشف الظلمة عن نفسك ، وينقذها من الحيرة والتيه .

لقد صارحتك بأنه ليس أمامك إلا الفروض والتخمينات ، تتخلص بها من حاضر القلق ، وواقع الهم . وتصنع منها دنيا جديدة لك ، دنيا من نسج الإغضاء والتغافل والهرب ، تتسامى بها على دنياك الحائقة بك ، المطبقة عليك .

لقد طالبتك بأن تقول كلما نابتك نائبة ، أو نزلت بك ملمة : فلنفرض ، وكفى !...

لم يكن قولي هــذا دعابة متظرف ، لا أبغي من ورائه إلا الترفيه والتخفيف عن المكدودين الرازحين تحت أثقال الحياة ، ومكارهها الجسام ... كلا ياسيدي ، ما أنا بهازل أو عابث ، إنما

أنا صاحب فلسفة جديدة ، أو على الأصح صاحب دين جديد ، أحمل إليك رسالته ، رسالة الطمأنينة والأمن والدعة والسلام!...

كلما تعمقت فى تحليل « فلسفة فلنفرض » ازددت تعلقاً بها وإيماناً ، إذ تتفتح أمامى مسالك جديدة ، جديرة بالإشادة والتنويه . وإنها كلها لتؤيد هذه الفلسفة ، وتؤكدها توكيداً يحفزنى على أن أجهر على الملإ عالى الصوت بأن « فلسفة فلنفرض » إنما هى فلسفة الحياة الحقة فلسفة الإنسان السَّوِىّ ، كما أرادته الأقدار أن يحيا على ظهر هذه الأرض !...

إن « فلسفة فلنفرض » لتتغلغل فى كل مظاهر نشاطنا الذهنى والحيوى ... إنها الدعائم التى ترتفع بها الصروح السامقة من علم ، واجتماع ، واقتصاد ، وفن ! ...

أثمة نظرية من النظريات التى استقامت بها الأفهام والعقول مهما تبلغ دقتها فى القياس ، أو الوزن ، أو التحديد ، أو التقنين ، لم يكن عمادها وقوامها الفرض والتخمين ؟...

العلماء يحدثوننا عن الذرة والكهرب ، وسرعة النور والسدم وما إلى ذلك ، فإذا سألتهم أن يقدموا لنا برهاناً حسياً على صدق مايزعمون ، — أعياهم الجواب ، ولم تسعفهم آلاتهم بشىء ، وعجلوا إلى الفروض والتخمينات يستعينون بها على دعم ما يقولون !...

قديماً قالوا لنا : إن العالم كالرحى ، وأنه محمول على قرن ثور حتى ! ... ثم زعموا أنه كروى على شكل البطيخة ، ثم ادعوا أنه أقرب إلى الشمامة منه إلى أى شىء آخر ، وجاء أخيراً من يصحح هذا الرأى وأحسبه « أينشتين » — غفر الله له فروضه وتخميناته — فيقول : إن العالم لا يعدو شكل « الخيارة » أو بلغة السادة المهذبين ، شكل « السجار الهافانا » الفاخر . وأنه يجرى فى مداره كالحلقة المفرغة ، أحد أبعاده العتيدة هو الزمان ! ...

وما كان العلم فى كل ما قال إلا غارقا فى فروضه وتخميناته ، وأخشى أن أقول فى تخريفاته . ويعلم الله ما يخبؤه لنا ذلك العلم فى جعبته فى قابل الأيام من آراء ومزاعم ، فى شكل الأرض والسماوات والنجوم ...

كل حقيقة علمية فى حياتنا الإنسانية كانت وليدة « فلنفرض » ! ...

لولا أوهام الفروض والتخمينات لما كانت هناك حقائق علمية على الإطلاق ..

لو لم يفرض العالم والباحث شيئاً غير موجود ، لما استطاع العلم والبحث أن يضيف جديداً إلى الوجود ! ...

ولكننى أسمعك تقول :

مهما يكن من أمر العلم ، فهو إذا فرض ، كان مصدر فرضه وميزان تخمينه العقل البشرى ... ومن ينكر على العقل قوة منطقه وصحة أحكامه ؟...

وأنت تنسى أو تتناسى أن هذا « العقل » العظيم الذى ألهناه حتى صلينا له وسبحنا ، ماهو إلا من صنع الفروض والتخمينات ، صغناه على هوانا ، ووفق مزاجنا ... وإلا فأخبرنى — يا رعاك الله — ما كنه هـــذا « العقل » ؟... كيف هو ؟ ... وأين هو ؟... على وجه التحديد الدقيق !...

من العسير يا صاحبى ، بل من رابع المستحيلات — كما يقولون — أن تدلل بالبرهان الحسى الملموس على حقيقة من الحقائق ، وعلة الاستحالة أن الحقائق الخالصة لا وجود لها فى عالمنا القاصر ، فهى وهمية نسبية ، متغيرة بتغير الزمان والمكان ، والعقول والأفهام !...

وإن المرء منا إذ لا يهوله هذا الأمر — أعنى خفاء الحقائق — وإذ يحس فى دنياه هذا « الفراغ » المخيف ، لتراه يعجل إلى خياله يستمد منه العون ، فيمـــده خياله الخصب بتلك الفروض والتخمينات ، يحاول بها ملء هذا الفراغ ، وتجلية ذلك الظلام ،

ومن ثم يحيا هانئاً بأوهامه العذاب !...

* * *

لقد بسطت لك فى حديث الأسبوع السالف بعض « أمثلة نظرية » أهديها إلى زملائى فى البلية والكرب ، يستعينون بها على الخلاص مما يثقل كاهلهم من جسام المصائب !...

وهآنذا اليوم أقدم إليهم بعض « الوصفات » العملية لعلاج مثالى لا تستطيع أمامه أشد الأمراض النفسية استعصاء على الشفاء إلا أن تذوب متحللة أو تتطاير متبخرة ، فإذا النفوس راضية تنعم بهناءة واطمئنان !...

ودونك إحدى هذه « الوصفات » ...

زعموا أن شاعر فرنسا العظيم « فكتور هوجو » وهو فى منفاه بجزيرة « جرسى » كان يدأب على الذهاب أصيل كل يوم إلى شاطىء البحر ، وقد ملأ جيوبه بالحصى بين صغير وكبير ، ثم لا يلبث أن يقذف بهذا الحصى إلى البحر واحدة إثر أخرى ، فإذا سأله سائل : لم تفعل ذلك ؟... بادر بالإجابة : إنى أقذف بهمومى إلى البحر !...

فهذا الشاعر العظيم التمس وسيلة عملية للتخلص من همومه ، بأن تخيل أن تلك الهموم ما هى إلا حصى أو حجارة يلقى بها إلى

البحر ، فيحس الراحة والصفاء ! ...

فلم لا نتخذ من شاعر « فرنسا » العظيم مثالا نحتذ به فى طرح الهموم عن الكواهل ، والتخلص من مضايقات الحياة ؟...

مناطق الماء كثيرة فى بلادنا ، والحصى لا عدد له ، والرأى عندى تيسيراً على من يشق عليه الذهاب إلى النيل أو أحد فروعه أو قنواته أن يحتفظ فى داره بطست أو إبريق أو أى وعاء آخر يملؤه بالمـاء ثم يخف إلى الطريق يلتقط الحصى والحجارة ، ويعود بها ليجلس جلسة رخية على ضفاف هذه الطسوت والأباريق يلقى فيها بما جمعه ، فإذا همومه تتساقط عنه ، فى غير عناء ...

وهاك « وصفة » أخرى ! ...

أذكر وأنا فى مقتبل الشباب أنى زرت يوما صديقاً لى ، فألفيته ثائر الأعصاب ، فسألته عما يضايقه ، فشكا إلىّ رئيسه فى « المصلحة » ناعتاً إياه بالظالم المستبد ، إذ أوقع به عقاباً صارماً دون مبرر ... فقلت له : دعك من التفكير فى هذا الأمر ، ولنخرج لطلب النزهة ، فتذهب متاعبك ومضايقاتك .

فعجل يقول :

لا أخرج قبل أن أصفى حسابى معه بحال ! ...

وخفّ إلى خزانة له ، فجذب من أحد أدراجها سكيناً ضخمة

لها نصل حاد ، وأخذ يلوح بها فى يده تلويح مبارز على أهبة النزول فى المعترك ، ثم ما لبث أن قفز قفزة رائعة ، وانقض على وسادة ملقاة على المتكأ ، وما أسرع أن انهال عليها طعناً حتى لم يعد فيها مطعن ... وما إن شفى غليله بهذا الطعن حتى رأيته وقد مضى إلى الخزانة يضع فيها المدية بعد أن مسح نصلها بمنديله ! ...

ورجع ناشطاً طلق الأسارير يقول لى :

الآن أستطيع أن أخرج معك للنزهة فى صفاء وراحة بال ! ...

فلم لا نزود دورنا بقدر وافر من هذه الوسائد تستقبل طعناتنا كلما حزبنا الأمر ، واشتدت علينا مظالم الناس ؟...

إنها « وسائد الانقاذ » ! ...

لزام أن نفسح لها مكاناً فى كل ركن من أركان البيت ، كما يفسح الربان فى سفينته أرحب الأمكنة « لأطواق النجاة » ! ...

ودونك « وصفة » ثالثة :

كانت مربيتى العجوز — وأنا فى سن الصبا — تقص على قصة لطيفة أو على الأصح « أحدوثة » تشبه الأساطير ، هى قصة فتاة وجدت نفسها بين عشية وضحاها فى مكان قفر لا أنيس فيه ولا جليس ، وعلمت أن عليها أن تقضى الأعوام على هذه الحال . فإذا احتملت أعباء الوحدة القاسية وآلامها المبرحة فى صبر وأناة كان الجزاء عظيما ! ...

وقد نجحت الفتاة فى تحمل مكاره الوحدة والوحشة ، حتى ظفرت بالجائزة السنية ، فما ظنك بما فعلته ؟...

اتخذت لها عروساً من صلصال ، أقامتها فى أحـــد أركان حجرتها ، فـكانت تفزع إليها عندما تضيق بالدنيا ، وتشتد بها السآمة والملال ... إذا أعوزها حنان الأمومة استلهمت من دُميتها صفو الحنان فرضاً وتخميناً .

وإذا تفقدت رعاية الأبوة التمستها فى هذه الدمية ، فـكانت لها أباً رحيما ...

وإذا شاقها لهو الصويحبات وثرثرتهن اتخذت من عروسها صاحبة تطيل معهـا اللهو واللغو ...

كانت عندها أعز شىء ... إليها تشكو ، وبهـا تأنس ، ومنها تستلهم الأمن والعون ...

* * *

حسبك هذه «الوصفات» التى تقوم على سياسة الفرض والتخمين ، تلك السياسة التى تتخطى بها كل عقبة ، وتحل كل عسير !...

اهتف إذن معى :

فلتحى « فلسفة فلنفرض » !...

سرّ بطولة المرأة ...

لو طلب إلىّ أن أختار من أعلام النساء فى الماضى آثرهن عندى ، وأولاهن بإكبار وتقدير ، لما كان منى أى تردد فى اختيار امرأتين ، تغنى شهرتهما عن كل وصف ، وأعنى بهما : « كليوبترة » و « شهرزاد » ! ...

كلتاهما تمثل جوهر المرأة الأصيل ، أصدق تمثيل ، وإن كان لكل منهما وسائل خاصة ، وطابع متميز ! ...

لا تقاس البطولة بما يكون من جلائل الوقائع والأحداث ، فمن الظلم أن تقصر عن الحروب والفتوح وإنما حق البطولة أن تقاس بما يكون من نفاذ الشخصية ، وقوة التأثير ، وبلوغ الهدف المرسوم ، فكل من يؤدى مهمته التى خلق لها على الوجه الأكمل خليق أن يعدّ فى الأبطال ! ...

وإذن فلا غلو فى القول بأن « كليوبترة » و« شهرزاد » تحملان علم البطولة فى عالم المرأة على وجه الزمان .

الأولى : من صنع التاريخ ، والأخرى : من خلق الأساطير .
وقد يبدو هذا خلافا بينهما أكبر خلاف ، وهل ثمة مدى أبعد من الخلاف بين حقيقة وخيال ؟ ... ولكنك لو تأملت مليّا ، وتدبرت الأمر على وجهه ، لألفيت هاتين الشخصيتين تضيق بينهما مسافة الخلاف ، ولبان لك فى شأنهما أن ليس من فرق بين الأسطورة والتاريخ .

أبطال التاريخ يتقادم عليهم الزمن ، فينسج حولهم شفوفا وغلائل ، تكاد تحجب سماتهم أو تحيلها سمات أخرى ، فإذا هم إلى أبطال الأساطير أقرب ، وبهم أشبه ، ولعل ذلك خير مكافأة يغدقها عليهم الزمن المنصف المثيب . فكلما أشبهوا الأساطير توافر حظهم من التوهج والخلود ، فإن حرم أحدهم تلك الهالات الأسطورية ، بما لها من جدّة وطرافة ، ظل فى محبسه التاريخى المحدود ، لا تتهاداه الحقب ، ولا تهفو إليه العيون !...

أمثل على نفسك من فورك أسماء اللامعين من أبطال التاريخ ، فى مختلف الجوانب والأنحاء ، من قديسين ومفكرين ومن شجعان وعشاق ، وسل نفسك : أكان لهؤلاء أن يحيوا هذه الحياة الموصولة الوهاجة لو خلت شخصياتهم مما تلفف حولها على مدى الأيام من شفوف الطرافة وغلائل الإغراب ؟! ...

أما شخصيات الأساطير وأبطال الروايات ، فنحن نعدها من صيد الخيال ، ونعنى بذلك أنها لم تكن فى عالم الواقع ودنيا الناس . ولعمرك ما الخيال ؟ ... وهل هو إلا مرآة تستجيب فيها النفس لما يجيش فى الحياة ؟ ... وهل هو إلا صدى لما يتردد فى أرجاء الواقع من صيحة أو همس ؟ ... فهذا الخيال إذن لا يستمد صيده إلا من عالم الواقع ودنيا الناس ! ...

على أن الشخصيات الأسطورية والروائية تتلقاها عبقريات الفنانين من الأدباء والكتاب ، فتثير فيها خفقة الحياة ، وتنفض عليها صبغة الألفة ، وتقيمها فى مجتمع الناس أحياء متميزة ، لها من الكيان فوق ما لأبطال التاريخ من كيان .

سواء علينا إذن أبطال التاريخ وأبطال الأساطير ... فهم فى البطولة أشباه ، وهم فى تمثلنا لهم : قريب من قريب ، وإنما يتفاضلون بمقدار ما أوتوا من جوهر الإنسانية الخالص ، فمتى كان حظ أحدهم أوفر من تلك الخصائص الإنسانية الثابتة ، فهو على الزمان أخلد ، وهو فى الحياة أبقى .

للبشرية فى عمرها الممدود مشاعر ونزعات ، ولها مطامح وأهواء ، وعليها تتعاقب الحظوظ من مسرات وأشجان ، ولن تحتفظ البشرية فى سيرها مع الزمن إلا بذكرى أولئك الأبطال

الذين نرى في حياتهم صوراً من تلك الغرائز والنوازع وألوان الحظوظ ! ...

في ضوء ذلك الاعتبار ، أنظر إلى « كليوبترة » و « شهرزاد » ، فأراهما حقاً مثلين رائعين لبطولة المرأة على وجه الأرض متقاربين على الرغم من تخالف منبتيهما في الأسطورة والتاريخ ! ...

في حياة هاتين المليكتين عصارة حية لشخصية المرأة ، بل رمز خالد لإنسانية « حواء » ! ...

وربما عز عليك أن أخص بالذكر هاتين المرأتين في عالم النساء ، وكأني بك تسألني : أفاتني ما سجل التاريخ من أنباء نسوة كانت لهن بطولة حقة في العلم والأدب ، وفي الوطنية والجهاد ، وفي شتى مناحي الخير ومرافق الاصلاح ؟...

لست أنكر من هؤلاء شيئاً ، ولكني أومن بأن البشرية لا تخلو من البطولة النسوية في التاريخ إلا ما يكشف عن خصائص الأنثى ، ويبرز مهمتها الأولى في حياتنا الدنيا ! ...

إن الجماهير لتتحمس بعض وقت لأسماء نساء طلعن في آفاق المجد . مجاهدات أو مصلحات أو ذوات أدب وفن ! ...

ولكن ما أسرع أن يجرر النسيان أذياله على هذه الأسماء ، فلا تكاد

نذكر إلا فى مقامات محدودة يشاد فيها بالفضائل والأمجاد ، بغية الوعظ والارشاد ! ...

دونك مصداق ذلك فى ذكرى « جان دارك » ... فانظر أى مصير انتهت إليه بطولتها الرائعة ؟... هذه عذراء اجتمع بها شمل أمة كانت تمزقه شر ممزق ، وانبعث بها من الرقاد شعب طال به النوم ، فكان جزاؤها بعد ذلك كله أن جحدت الأمة صنيعها العظيم ، وباعها الشعب للعدو بثمن بخس . ثم أبى أن يفتديها بمال زهيد ... وأكبر الظن أن رجال الدين — فيما بعد — فطنوا إلى أن هذه العذراء يوشك أن ينطفىء مصباحها فى بطولة الوطنية والجهاد ، ففسحوا لها فى مجالس القديسين مكانا يحميها من كفران الناس وظلم التاريخ ، فأحسنوا لها الوفاء وأجزلوا لها الجزاء ...

وإن « جان دارك » التى تفتقت عبقريتها فى ميدان الحرب والضرب ، لتخلع الآن دروع الشجعان ، وتتخلى عن ميادين القتال والصيال ، لتلبس مسوح العابدات ، معتكفة فى الأديار ، خالصة للصلاة والتسبيح ! ...

البشرية لا تشيد بالأمجاد إلا إذا لاءمت أهواء الأفئدة وسايرت نزعات النفوس ! ... فهى تحمد للأبطال أنهم يحققون ما تصبو إليه النفوس من عظمة وإمرة ومآرب ألوان ، وما كان لهذه

البشرية أن تفضل بطولة امرأة فى ميدان الجهاد والكفاح ، على بطولتها فى ميدانها الأصيل : ميدان العواطف والقلوب !...

ومن ثم تضاءلت فى تيار الجماهير بطولة « جان دارك » إذا قيست بما خصت به بطولة « كليوبترة » و « شهرزاد » من تألق وازدهار !...

لا تردد قول الناس .

إن « كليوبترة » ليست إلا ملكة قامت شهرتها على الفتنة والهوى ، وإن « شهرزاد » لا تزيد على أن تكون غانية أجادت صوغ الأقاصيص ، لتخلب بها الألباب !...

هذا قول ضحل ، وما كانت تلك الصفات لتنهض بها بطولة ، وتتخلق بها بطلات !...

لا فتنة الجمال ولا سحر الجاذبية ، ولا خلابة الحديث ، — بمجزئة جميعاً فى أن تهب المرأة بطولة ميدانها النسوى !...

سر بطولتها الحقة كامن فى مقدرتها على فهم « الرجل » ، وعلى اتخاذ الحيلة والوسيلة للاحتفاظ به ، وإن شئت تعبيراً أوضح وأصرح ، فقل فى غير مواربة : إنه فن نصب الشباك للرجل ، حتى يقع فى الأسر ، فإن وقع لم يجد من الشباك سبيلا إلى الفكاك !...

فأما رونق الحسن ، وحلاوة الأنس ، وطلاوة المنطق ،

وما إلى ذلك من صفات ومزايا : — فما هو إلا بعض أسباب وذرائع ، تتفنن المرأة فى استخدام ما يتسنى لها منه ، سلما إلى الهدف المرموق ، وقد يبلغ من تفنن المرأة حين تفقد بعض هذه الصفات والمزايا أن تنتزع من خصائص أنوثتها جديداً ، يشق لها الطريق ، ويوفى بها على الغاية !...

ما كانت «كليوبترة» مثلا رائعة الجمال ، ولو تصورنا أنها تتقدم اليوم فى المسابقات العالمية التى تعقد للحسان ، لكانت قمينة أن ترتد إلى أعقاب الصفوف !... ولعل هذه المسابقات لو عقد مثلها فى عصر «كليوبترة» لما كان حظها بين أترابها من نساء ذلك الزمن خيراً مما نقدر لها اليوم من حظ ... ولكن الفاتنة الفرعونية — على الرغم من ذلك كله — انعقد لها تاج البطولة النسوية زاهياً يتألق . ولم تستطع الأحقاب المتطاولة أن تنال من تألق تاجها وازدهائه ، على حين أن « ملكات الجمال » ، اللائى يتوافر لهن أرفع الحظوظ من الجمال الفينوسى ؛ — لا يطول بهن العهد على عروشهن ، ولا يلبث صيتهن أن تطويه الليالى والأيام ، شبيهات بتلك القذائف التى تنطلق فى الأعياد ملونة وهاجة ، يستشرف لها الطرف حيناً ، وهى تسطع فى الأفق ، وسرعان ما تتهاوى رماداً تذروه الرياح !...

كلما كانت المرأة أدنى إلى تحقيق ذلك الغرض الجوهرى ، غرض امتلاك الرجل والاحتفاظ به ، كانت مخلصة فى تأدية رسالتها الأنثوية ، مسايرة لخصائصها النفسية ، ظافرة بحقها فى هذه الحياة « دون بغى ولا عدوان ! ...

ويخطئ من يرسم للمرأة خطة تيسر لها نيل ذلك المأرب ، فما يخضع الأمر لقواعد وخطط ورسوم ، وإنما هى بصيرة للمرأة الموهوبة ، تلك التى تهفو إلى ذروة البطولة النسوية ، بصيرة تعينها على التفطن لما يتعلق به الرجل من رغباته ، والتعرف لمكامن الضعف من نفسه ، وإذن لا يتعاصى عليها أن تقود زمامه ! ...

إرضاء المعدة طريق إلى إخضاع الرجل ، وإثارة الغرائز فيه طريق آخر ، وإيهامه بالسلطة أو الجاه طريق كهذين الطريقين ، ولست بمستطيع أن تحصى ما هنالك من طرائق ، ولكنها كلها موصلة إلى « روما » كما يقول المثل !...

والمرأة إذا تناولت الأمر فى غير مبالاة ، وأخذته على غير تدبر ، فهى امرأة فاتها أن تكتسب فن اصطياد الرجل والإبقاء عليه ، وإنه لفن عميق عويص ، يفتقر إلى دراسة ومرانة ورهافة حس ! ... ولكى تصل المرأة إلى « كلمة السر » فى فهم رجلها المختار ، وتكشف عن الأرقام التى تنفتح بها أقفال قلبه ، لابد لها

من عبقريه فى سبر أغوار الرجل ، واستنبطان محور أهدافه ...
وإن هذه العبقرية لهى مهر البطولة ، التى تعتـــلى بها المرأة أوج
المجد والفخار ...

وحاشاك أن تستهين بقدر هذه البطولة ، وأن تحسبها من
توافه الأشياء ! ...

بطولة المرأة فى هذا النطاق ، رفيعة الهدف ، قوية الأثر فى بناء
المجتمع ، فهى سبيل إلى تلك المؤاخاة وذلك التآلف بين الجنسين :
الرجل والمرأة ، إنها للبيت عماد ، وللأسرة روح ، وإنها لأكبر
عون للرجل على شق طريق الحياة !...

دونك « حواء » نفسها ... سيدة المجتمع الأولى ... فيها
تتجمع زبدة خصائص المرأة الأصيلة الخالدة ، ومن حياتها تنسق
شريعة النساء لكل زمان ومكان .

لهى أول من فهم نفسية الرجل ، واستبطن خفاياه ونوازعه ،
فكانت أقدم من سنّ الأساليب لامتلاك الرجل والاحتفاظ به ...
وما عرفنا — فيما انتهى إلينا من الآثار أو الأساطير — أن فُرقة
وقعت بين هذين الزوجين الأسبقين ، إذ عاشا عمرهما فى رباط
موصول !...

وفى حسبانى أن « آدم » كان فيه نزوع إلى خلاف ؛ إذ كان

ضائقا بالوحدة والخواء ، تعتلج في نفسه أشجان لا تستبين له ،
فعالجت أمره « حواء » ، وأدركت ما بنفسه من نزوع ، ومن ثم
سعت سعيها حتى كسبت قلبه ، وضمنت حبه ، فأقامته على ظهر
الأرض أبا للبشر ! وصاحب حجر الأساس في صرح العمران !...

على عاتق المرأة تقوم مهمة توثيق الألفة واتصالها بينها وبين
الرجل ، ذلك عملها في الحياة ، وهو دائرة اختصاصها الذى خلقت
له . فإذا انفصمت عروة الألفة بين رجل وامرأة ، فلا يخالجنك
ريب في أن المرأة هي العلة ، وعليها التبعة ... فإن كانت في هذه
السبيل بريئة لم تجن ذنباً عن قصد ، ولم تسع إلى فُرقة على عمد ،
فلا أقل من أنها ليست بالذكية ولا بالفطنة ، تدرك مهمتها حق
الإدراك وتعالج أمرها على أحسن وجه ، وتستخدم مواهبها الأصيلة
في امتلاك الرجل والاحتفاظ به .

لا يقع في اختصاص الرجل امتلاك المرأة والاحتفاظ بها ،
وإن بدا ذلك منه في ظاهر الأمر ، فللرجل من شواغل العيش ،
ومطامح الحياة ، صارف له عن تلك الغاية ... في أعماق نفس الرجل
أنه خلق لتحقيق مثل بعيدة المدى في هذا المجتمع الذى يعيش فيه ،
فهو — في تقدير نفسه لنفسه — زعيم الحياة ، يناضل فيها ،
ويكافح لها ، ويسمو بها نحو الكمال !... ولذلك لا يقيس الرجل

بطولته إلا بمقياس الأمجاد التى يحوزها فى مجال الفتح والتعمير والاغتنام ! ...

ميدان الرجل هو الحياة بما فيها من جوانب رحاب ! ...

أما ميدان المرأة فهو هذه البضعة الصغيرة من اللحم والدم ... هو القلب ... قلب الرجل ! ... وإنه على صغره وضآلته لدقيق التركيب ، بعيد الغور ! ... وللمرأة أن تزهو بامتلاك هذه الهناة الضئيلة ، أكثر مما يزهو الرجل بامتلاك الكثير من عروض هذه الحياة ! ...

ما قامت عظمة « كليوبتره » و « شهر زاد » إلا على هذه العبقرية النسوية فى فهم الرجل ... فى امتلاك قلبه ... وما عظمتها إلا تحقيق كامل لشريعة المرأة الأولى : « حواء » ! ...

دارت بطولة « شهر زاد » حول امتلاك رجل ، والاحتفاظ به ، رجل وأى رجل ! ... طاغية سفاح ضَريتْ شهواته كل الضراوة ، فلم تستطع جمهرة العذارى اللواتى تعاقبن عليه أن يكبحن جماحه ، حتى جاءت « شهر زاد » فى عبقريتها وبطولتها تستبطن سره ، وتستكنه غوره ، فتصنع المعجزة التى أعيت على سائر العذارى من قبل ! ...

ماذا صادف « شهريار » عند أولئك العذارى فى غفلتهن

وبلاهتهن ؟... لم تفهم واحدة منهن إلا أنها جسد يوهب ، ومتعة تسلب ، فكان « شهريار » خليقاً أن يمل هذا المتاع الرخيص ، وأن يضيق ذرعا بذلك القطيع من الشياه الذليلة البلهاء ، فلا يجد مفيضا من تقديم رقابها طعمة للسيف المسنون !...

انطوت سريرة « شهريار » على رغبة قوية ، فى امرأة من طراز رفيع غير هذا الطراز .. فكانت هذه المرأة « شهرزاد » . ليس الحب عندها مجرد بذل واستسلام ، ولا هو محض جفاء واستعلاء ، وإنما هو فن ... فن دقيق لاتباح أسراره إلا للعبقريات من بنات « حواء » . فن المرأة فى الحب : متى تهب ؟ ... وكيف تهب ؟... وبأى قدر تهب ؟ ...

وهم جسيم أن تحسب « شهريار » استبقى « شهرزاد » تلك الليالى الملاح ، من أجل استكمال ماترويه من قصص ... ولا وربك لم تكن هـــذه القصص إلا رمزاً لفكرة الإغراء والاستهواء ، وذريعة لما تجلى به فن « شهرزاد » فى تصيد قلب رجلها ليلة بعد ليلة ، والاحتفاظ به على تطاول الليالى :

ألف ليلة وليلة !...

وأما « كليوباترة » فقد بدت عبقريتها فى استدراج ملكين من أساطين الفتح والغلب فى التاريخ ، متخذة لكل منهما ما يوائم نفسه .

هذا « يوليوس قيصر » فى أبهة مجده الحربى ، لم يبق أمامه ما يصبو إليه ، فى بسط سلطانه على رقاع الأرض . ولكنه كان على ظمإ إلى أن يبسط سلطانه فى ميدان آخر لعله كان عنده أشد استعصاء من كل ميدان سواه ... فتفطنت « كليوبترة » إلى مكمن تلك الغلة المستورة . أعنى رغبة القيصر فى أن يملك قلب امرأة ... امرأة لها مكانة « كليوبتره » ولها مالها من عبقرية وفن ، فتقدمت تسقى سمعه صفوا يشفى منه ذلك الظمأ ، ويقر فى نفسه أنه رجل بلغ فى ذلك الميدان المنيع غاية المنى وفصل الخطاب ! ...

وجاء دور « أنطونيو » وهو رجل مغامرات وابتذالات ، فانساقت « كليوبترة » معه فى تيار هواه ، طالبة ظفرا به ، وهيمنة عليه ، ولم تمتنع أن تكون معه غانية خليعة كما تهفو نفسه ... غانية تترع لهما ألف من تلك الكأس التى تسكره وتأسره ، كأس الحب الرخيص ! فكان لها ما أرادت من امتلاك قلبه والاحتفاظ به ! ...

فسلام على « شهرزاد » ، وسـلام على « كليوبترة » ، حين نعرف لبطولة المرأة قدرها بين ألوان البطولة ، فى شتى الميادين للرجال والنساء ، وحين نفاضل بين بطولة تقوم على أساس امتلاك الرقاب ، وبطولة تقوم على أساس امتلاك القلوب ! ...

الفهرس

من مؤلفات «محمود تيمور»

(أ) مجموعات قصصية :

١ — كل عام وأنتم بخير
٢ — مكتوب على الجبين
٣ — شفاه غليظة
٤ — شباب وغانيات
٥ — إحسان لله
٦ — خلف اللثام
٧ — فرعون الصغير
٨ — بنت الشيطان
٩ — قال الراوى
١٠ — أبو الشوارب
١١ — دنيا جديدة
١٢ — معبود من طين
١٣ — ثمر حلو عجب

(ب) قصص مطولة :

١ — كليوباترة فى خان الخليلى
٢ — سلوى فى مهب الريح
٣ — نداء المجهول
٤ — شمروخ

(ح) صور وخواطر :

١ — ملامح وغضون
٢ — النبى الإنسان
٣ — شفاء الروح
٤ — عطر ودخان

(د) رحلات :

١ — أبو الهول يطير
٢ — شمس وليل
٣ — جزيرة الحبيب

(ه) قصص تمثيلية :

١ — صقر قريش
٢ — سهاد أو اللحن التائه
٣ — المنقذة
٤ — المخبأ رقم ١٣
٥ — المزيفون
٦ — فداء
٧ — عوالى
٨ — ابو شوشة والموكب
٩ — قنابل
١٠ — حواء الخالدة
١١ — اليوم خمر
١٢ — ابن جلا

(و) دراسات لغوية وأدبية

١ — مشكلات اللغة العربية
٢ — دراسات فى القصة والمسرح
٣ — طلائع المسرح العربى
٤ — اتجاهات الأدب العربى فى السنين المائة الأخيرة
٥ — معجم الحضارة (قاموس)

